فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله . ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجلس في طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حث همته العليا . وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه . وأوفى جنه . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطل بدرا . واصفر لمرتقبي صباح النصر فجرا . وجلا وجوه المؤمنين ببشاه بشرا . وملأ صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و المجد المؤثل . بجيش كالسحاب المسيل . فدوت اخلاف النصر بحقول ذلك الحجفل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل مقدام.وزأر خيس الجيش بكل ضرغام . وزأر بكل اهتمام بالمذون همام .ووصل بكل واصل لسبب النصر .قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد باليمن الوافي . والنجح الكافي . والعز الصافي . والعزم الشافي . وطلع بكل طالع بالسنى . جامع المنى . فارع بالغنى . فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا.وكان هذا اول يوم لقائه للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتودد الى الناس. والتشدد بالباس. والتواضع مع الكرم . ودنو الود مع علو الهمم .ماله مبذول .ونواله مأمول .وسيفه على الكفر مسلول .وامره بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول .وهو مرجو مخشي .وكريم ه شي.ومهيب مرجو. ومحسن بسنى الحمد مجلو.وكان معه خلق كثير .في سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير .وانزل بقرب اخيه مظفر الدين في الميسرة .وتمكن الرعب بما تم من الجمع في قلوب الكفرة .

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميره. والعدد الكثيرة. فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول. وتم بظهوره النصر المأمول. فركب السلطان في جحافله. وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله. واحدق به حول خنادقه. ليوسع عليه الهلاك في مضايقه. وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول. ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الصول. فعمر الفرنج اسطولا. وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا. وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور. ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور. فجاءت مراكبنا. ونطحت مراكبهم وطحنتها. واوهت متنها واوهنتها. واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا. وكان تقصير الرؤوساء في حفظه لأخذه سببا واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس. وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية. وكلاءة الله لنا ولأصحابنا وافية.

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها وتكشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني. وهناه من النجح السني. واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني. وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور. ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور. متوافرا بوفود الوفور. ودخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور. فاثر البلد بعد انفاضه. واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه. واستجد جدة وافيه. وعصمة واقيه. ونخيرة كافية. وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها. وابرزت مناكبها. وحمت بالرجال

والعدد جوانبها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها . وسحبت على ثبج البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا المحلقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظنت انها تستطيل على رواسي اساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور جواريها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب بما احاط بها من الذواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر حين ذعر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها. ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم ، وكانت الفرنج حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخسرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالأسد عريسه . في شوان للعدو شوائن . وشلنديات لشله وفله ضوامن . وحراريق لاهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة. وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر أمواجا في الأمواج . ودخلت الى الثغر افواجا بعد الأفواج . وكان العدو قد أبرز أباطيله . وجهز أساطيله . وشب عواديه ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمى مناكب مراكبه . وجد في امهاء غروبه وتسنيم غواربه . ولما وصل الأسطول طال وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلابها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثري به الثغر بعد الانفاض واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . ودخل اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق رياضا . والمراكب الاسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو أعراضا . وجاءت سواريها كالرواسي . وجواريها محكمة المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشد شد العراب . وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب في اعداء الله بين الأحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب . وماأحسنها وقد زفت عرائس . وجليت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الظلال . ولما شوهد الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من الاعداء بحقه . وأشرق سنا النجح في أفقه . ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى الأبطال بالأبطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال . وأحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق . وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات . وأدرك المشركين مافاتهم من الآفات .

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وأنه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثور . فقيل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلاضرا . وكان التركمان الأوجيه (٤٦) على طريقهم . يمنعون بغربهم (٤٧) من تشريقهم . فاضطروا الى المقام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها . ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها . فترجلت منهم الوف . ورغمت أنوف ، وكان ذلك في البردالشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الأثقال . ونقل عدد الرجال . فدفنوا وأحرقوا منها . وتركوها وسلوا عنها . وكان ذلك من الله لطفا . وأمست قوتهم ضعفا . وكانوا في خلق لايعد . وجمع لايحد ، فما أثر فيهم ذلك النصب . ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهم الوبال في أوجها أوجها . والأفرنجية لاتنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتى بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسعود . ومسلكها دونهم غير مصدود ولامسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . ودخلوا قونية دار ملك المسعودية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على ماكان بينهما من المواثيق والايمان . وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا . واشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسير في بلده الى بلد ابن لاون . واعطاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتى يصل الى المأمن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بمايرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواثيقه ، ووصل ليفون بن اصطفانه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . ودخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكنوا بها ليريحوا بها الذفوس ، وقيل عن لكلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه :كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة .ودخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه . وايسوا من علاجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجنابه . لكان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . ورامو بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة . ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته . وانه لاتلافي لما

فرط من تلفه وفوته فارقهم الى بعض قلاعه . واتصل الضربهم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقول ويعدد ويدهده ويهدد . ويري انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضح . وان الخطب فظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهنكر فدخله غصبا واوسعه نهبا . حتى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراد،وانه اخذ من ماله ورجاله ما اختار ، وتزود من عنده وامتار ، ثم وطيء ارض ملك الروم وداسها . وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادها . واحوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

وأخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومن الثياب الطلس المعدنية مابلغ الألوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه . ومعروفي كبرائه . وأخذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعدية . من مراكبه سحبا . وأنه لما عبر وفرغ من الخروج . تلقاه بالخيل والدواب والأبقار والأغنام تركمان الأوج . ثم وقع بين التركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قطب الدين ولد قليج ارسلان . والتقى الأقران بالأقران . وهزمه ملك الالمان . ولما أشرف على قونية خرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها . وأنه هجم على قونية عنوة . ونال منها حظوة . وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج ارسلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة ، وأخذ منه رهائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتابه الى ابن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الانهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربه وانقضى . وخلفه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا للقاء ابيه . فلما عرف موته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفجف . من كل سرحان أهرت وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد الحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب . ولزموا المصاب. وداوموا الاكتئاب ، وهم صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتاعت الانجاد والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويذلم ثغور الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على رأي الثبات . وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين بهرا مشاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدر المسلك . ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القسور . ثم اليار وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الأفضل وقد عرض له ألم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد الم به سقم . ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت الغله . وخلت الاماكن وتمكنت الخله . ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة . ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ النوب في اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض اكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه . مستعقبا لألطاف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم فيهم الموت والوبا . وكثر عن ذبواتهم الذبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلهما الى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الأرمن واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت في خيلهم ، فانن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتياث جوهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم في ثلاث ذوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم . ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك . بعد ان ضاق به وبجمعه اليها المسلك . وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة فاخلاها له . ونقل اليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله الى انطاكية قلت جموعه وجنوده . وبليت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج رجالها عليهم على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين ، وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاؤوا اليها سحرا بأحمالهم واموالهم السنية . فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلى عنها اصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من مال القوم . ثم انكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه انهض جماعة من اصحاب أمراء حلب واصحابه . ليقتفوا آثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض البزاة على الحجل . وزأروا فيهم زئير الأسد في الذقاد . وزاروهم بالأجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعة . وتركوهم متمزقة متمزعه . وعادوا بالأسارى الى حلب وباعوهم في الأسواق . وامتلأت بالأسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس الى انطاكية . واراح من الامها الالمانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس بتلك الأموال المجتمعه . والذخائر المودعه . حتى قيل انه انما رغب في الوصول الى بلده . ليحصل على سبده ولبده . فأخلى له قلعته . ليذقل اليها خزانته . ففعل ومارجع اليها . واحتوت يد الابرنس عليها . ثم ساروا على طريق الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقية . وسقتهم كؤوس المنية ، والقتهم على البوس والبليه . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما لقيت جموعه في طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بذقع غليل ، وسألم بـذكر حـالاته في مـواضعها . وذكر مصـارف جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمـة الغمـاء . والذكبـة الذكباء . والشدة الدهماء والليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشـودها . وقـوامصها وكنودهـا . واحـزاب الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبنودها . وصـل جـارا على السماء نيول قتامه . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره . سـائرا بخيله ورجله كالسـيل الى قـراره . وانه في عصائب صلبان في عصيبتها متصلبه . واتباع شـياطين لارضـائها متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسـلام متـوثبة . وانه في مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطـاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون . وقد اوقدوا للشر شرارا . وأضرمـوا للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهـم على قمـامتهم دائمة . وقيامتهم قـائمة . والموت يدعوهـم الى المقبـرة التـي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمناياهـم التـي يدعونهـا . وكان خبـر وصوله متداولا على السنة الاراجيف . وتشيعه اعداء الله من قبـل الترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجمـوع باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبـر صـحيح . ويقين نبـأ بـامر صريح . حتى اذا صح الخبر . سـار العسـكر ، ثـم اذقـطعت الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان وايار . وكانت كتب سـلطان الروم قليج ارسـلان واولاده ورسـلهم متواصلة بما ينبيء عن التعاضد . ويبني امر الوفـاء والوفـاق منه على التعاون والتعاقد ، وهم بـانهاء مـا يصـح عندهـم واعدون . ويزعمـون انهـم في رد الواردين واردائهـم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا:انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخلوا لهم الطريق ووادعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في آمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه، واقدرنا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولايدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالماني المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده واوان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوقدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلا وجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله في النجح بموعود توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اولياءه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام . وليثب وثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتخاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية الذفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرقة الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام الذوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد آن للاسلام ان يسلم . وللايمان ان يعدم . وللتثليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللكفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبده . والبر أتي أتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده . ووصل الالماني المخذول بعدده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشر قد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وفد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبنود مذشورة . وخيول مجفجفه . وسيول مجحفه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مغترون بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستندون في طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه الغمة . وكشف هذه المذلة حتى تخلف اماني الالماني . وتبطش ايمان الايماني . وتخذل انصار النصراني . وتجني وتبر رؤوس الجذوي والبيزاني . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين المهتدون في نهج الرشادالمتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض . لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين ، واراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثأر الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نقعه . ومافض الفضاء ختام قتامه . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالماني مخفف بالمامه . والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه . واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلية

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملأ احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشام . فنحن ننتهز الفرصة . ونحرز الحصة . ونهتبل الغره . ونهجم عليهم هذه الكره . وننيقهم المرة المرة . وندفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم . ودمت بعز العزائم وذفل حدودهم بحدود الصوارم . فخرجوا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الاخرة . في حشر يذكر بحشر الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجام لنا متوافية باسادهم . وامتدوا الى الخيم العادلية ، واشتدوا بما استصحبوه من البلية . في كل ذئب امعط . وسيد قد تورط . وسرحان سرح . وافعوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي أقدم وما احجم ، وسعيري ناري استعار خدمة النار . وسقري قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبوار . واسبتاري راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء . وسرجندي كرار . وفريري غير فرار . وفارس يفرس الرجال . وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشى يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقع اذا غوى في الوغى ماترك ولاابقى . ودخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها . وقد كانت اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه . وعن يمينه ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك الذوري . وجماعة من المعروفين بالشهامة . والموصوفين بالصرامة . ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل . حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشار . وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر شمس الدين مودود . وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود . فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر قبل ان تتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشهم على الارض وذكرت الواقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض . وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفت اخ الى اخ . وركبت العادلية اكتافهم . وفلوا فيهم اسيافهم . وعقروهم وعرقوهم وبجوهم وبعجوهم . وحكموا في الرقاب الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعنقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

اللتوت من لحوم الليوث . وبثوا بعوث المنية في تلك البعوث . حتى رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم . وارعد وابرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل . ووصلت بهم الى النجاح منى المناصل . فلم تترك اللهاذم لها ذماء . وغادرها شللها بالعراء اشلاء . ورأيناها كانها اعجاز نخل خاوية . وما احسن اجسام اهل الهاوية وهي هاوية . فكم جثة بلا رأس . وبنية بلا اساس . ونحر قد نحر . ودم قد انهر . ويد قد بتت . وكبد قد فتت . وعنق قد قطع . وانف قد جدع وودج وجد مفريا . وظهر قد ظهر مبريا وحلقوم قد حلق . وغلصوم قد فرق . وداوي قد دوي . وبالدم روي . وصليبي كسر صلبه . وقلب على صدره قلبه . وحربي أتاه الحرب . وغرب في ذبع عينه الذبع والغرب . وكان السلطان قد ركب وخشي أن جانب الميمنة نكب . وسير جماعة من كماة المماليك والامراء على مقدمته . وانتظر الميسرة لتنهض في خدمته . فوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزية . وفاز من الفزوة بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابن صاحب الموصل في اثناء المعركة . فعرف بركة سرعة تلك الحركة . لانه اخذ حظا وافرا ولقي من النصرة وجها سافرا . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال الميسرة احد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد . ووصل السلطان وشاهد من مساعه الفرنج ماسره. وعرف لطف الله وبره ونصره . وعاين هنالك مصارع الاعداء . ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين في مـــــــــــــــــــــــدى فـــــــــــــــــــــــرسخ

على الارض . وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل الى البحر بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل . وشاع القتل من الافرنج في كل قبيل . ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهم . والهجوم عليهم . فانهم ندموا على ترك الاسراع . فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهم . وشكر عزمهم وقصدهم . وأشفق من مضرة تشوب . ومعرة تذوب . فان الدائرة كانت على العدو . وقد فاز بالنصر الحلو . والصفو المرجو . وكانت

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبه . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ماهناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ماسلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقئت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونفكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولاانتظر . ولاترقبني ان احضر . ولاامهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا باذوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع . ولاتم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها . ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد . وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون ماكتبه . ولاترغبون فيما ارتبه واهذبه . فقال كانك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدى الى طرقاتها . فقلت مافات فات . وهيهات هيهات . واخرجت له مابقي من بشارات البلاد التي أنشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جداها بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المنابر . وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر . وبهرت بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مباهجها مناهج الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وما اسحها نصره . وما ابينها محجه . وما اثبتها حجه . وما افرجها مسرة . وما أسرها فرجه . وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفارقة عدة كثيرة من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقاطرين . وانتشروا متغاورين . واغاروا للواء اللاواء ناشرين . ووصلوا في الميمنة الى الخيم العادلية فاخليت حتى دخلوها . وتفرقوا فيها بجموعهم وتخللوها فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعراء . فوضى بالفضاء . فما بكت عليهم الارض ولا السماء . ورويت السيوف من دمائهم . قبل ان تشبع الوحوش من اشلائهم . وظهرت لنا نعمة الله في بلائهم وحبي الاسلام بهلاكهم . وضمتهم اشراك الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثر من عشرة الاف قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظاهر . ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرهم . لكنا فرغنا من شغلهم واخلينا بالنا بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم . وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجو من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خطبهم الخطير . وان ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هذه الوقعة بهم حقق عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم وتحورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . واشتغلوا باستباحة احوالها المصونة . فاطلقنا عليهم الاعنة . وشرعنا الى نحورهم الاسنة . وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على الارض . واديبنا باردائهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكأنهم جاؤوا على موعد مهلك . وارونا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا اشلاءهم قرى الوحوش لاالضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من المخوف . وادرك الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم . وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم من حواليهم . ورضتهم بالدبابيس والتوت . وتركتهم مرعي بتلك المروت . وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء . واكتسى عري العراء بتلك الاشلاء . وافضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعت ثعالب الرماح من كلاء كلاهم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة الاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتن جيوفهم ريح النصر . وحنت من سماجة مرآهم وجوه الدهر . والآن الان الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبت نكباء نكبتهم . ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسلام ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها الزواخر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفه صدتهم عن الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بواتر البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على اولهم وآخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الوقعة • وثم للناهضين الينا الرجعه • رأيت احد مماليكي ونصله قد خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسألته كم قتل • والى اين وصل فقال:اما انا فما أبقيت . وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم نجعة . وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة • وحكي من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر فجئنا للصرعه • فعثر به راكب برذون • بغير رفيق ولاعون • فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده . فنزل بجده مستنا في جدده . وقتل ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي . وحل من وسطه ثمانين

دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا.وامتلأت الأيدي بالأسلاب والاكساب . وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب . وبيعت الزرديات ذوات الاثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك النقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجح كل مرام . وبخبر بان عسكرا مجرا من الكفار خرج للغارة على الأطراف والأقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع الذور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهي قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، وذفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخلف ، حتى وصل في البحر .كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالأموال . وحلى منهم بعد عطلها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان نبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمدهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تتميمه . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكرنا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشرهة . وشاع هذا الخبر على السنة الجواسيس والمستأمنين . فاحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقدمة من الصواب . ويفتحه في المصالح الراجحة من الأبواب . فاشاروا بايساع الحلقة . وادارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتى يؤنس الى الخروج لحربه . فوافقهم السلطان على هذا الرأي وحسن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . واشتغل بالتدبير في الفوز بالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالي سفوحها . واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتب اليزك في المنزلة الأولى كل الف فارس بالذوبة في يومين . وضويق باهل الصدق منهم اهل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليزك اوقات ذوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فالكتب متردة اليها ومنها السباح . والحمام اليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخرج ، واليها وعنها تعوج وتعرج . واخبار ملك الالمان متواصله . بأن انصاره له خاذلة . وانه ضعف ووهى . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المسير . واعتاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبل ان يصل الى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالانفاق في رجال الاستجناد والاستنجاد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمع قطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مستمر على المودة راغب في المحبة . ويعتذر عن عبور الالماني . وانه قد فجع في طريقه بالأماني . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقه . ما أضعفه وأوهاه . وألهبه وألهاه . وانه لايصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويمت بمابه كاده . وانه بلغ في اذاه اجتهاده . ويطلب رسولا . يدرك به من

السلطان سولا. فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة انفق الكندهرى بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة الاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكنود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجيق . من الرمي غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين . وميادين ثعابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صقعهم صقعها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياع . وخرجوا بالفارس والراجل . وأموا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها من ورائهم والقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها . خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فاحترق جميعها . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعروفين فيهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالأموال . ولم يعرفوا بالحال . فأخرجوه اليهم قتيلا . فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه نوحا ، وينيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فخمدوا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس . وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم . والستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تثلم .

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فآبت بالحالة الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم باذكاء مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار . واذفق على أحدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت . وأن الأفكار باستدعائها عنيت . وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالغلات . فرأى ان ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعل له اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في كل مابه عز الدين السآمة . ويعطي ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة الى عكا . فعمر بطسة كبيرة وأعدها . وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملأها بأربعمائة غرارة قمح . ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام . وهذه بطسة من الفرنج مأخونة . وهي بساحل بيروت منبونة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البغية منها وتكتيمها . وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومائت بالشحوم واللحوم . وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من أحمال الذشاب والذفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا ان تشتبه ببطس العدو في البحر . وأن لاينكشف للفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا . وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم . وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . والقوم

لجهلهم لايشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث . وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حاذوا بها عكا صوبوها نحوها والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها . وقد عقت رفقتها . وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزأ البلد بها شهرا . ووجد منها لكل كسر جبرا . يالها من لطيفة قضينا منها الأرب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملأوها بالغلات واصناف الأقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها عند موافقة الريح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنتة بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لايبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت . ولا شك ان كتاب اجلنا الى هذا الأمد موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . والمت القلوب وألمت الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولايخيب من رجاه . ولايضيع من استرعاه،فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة تلك بطس كأنهن الاعلام واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواريها الحسان وخفت رواسي سواريها الثقال . وذكرت بقوله تعالى:(وهي تجري بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والريح تطردها طرد النعام . والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم اضل من الانعام . فما

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيها . واحاطت بها تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهي تشق عليها وتشقها . وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منها البر الإيمان الأيمان . وهزأت بتلك الأكمات المطيفة بها جبالها الرعان. وعبرت والكفر خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثر . ووصلت الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها غمة الثغر . ودفع ماألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التي أدركت الأرماق . وأدرت الأرزاق . وتلافت الأرواح من التلف . وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان لايبقى لنا شيء نفقاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته . فبينا نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هذا الهم متذكرون . اذ ظهرت للعيون بالقرة . وللقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنها جبال باقبالها تروع ونسور اجنحتها القلوع . وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقاربها وقربت من البطس شوانيها . وقويت في البطش أمانيها. وحمى مافيها من فيها من الرجال . وهي تجري بهم في موج كالجبال . وكأن جواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك الأعلام المنشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصدقات الى ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شانيء . وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كاليء . وجازت والكفر خزيان ينظر . وفازت بالعز والعدو بذيل الذل يعثر . وكان وصولها أوان انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغلاتها . وأزوادها . وعصمت أرماقها . ودسمت امراقها . وقسمت ارزاقها . واشبعت

جوعها . وشبعت صدوعها،وأنالت آرابها . وأزالت اجدابها . وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق . وسكنت بعد القلق .

وعاد اليها بعد الغسق اسفار الفلق . والحمد لله المغني بعد الاعدام . المني السني بعد الاظلام . المذفى باوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والنفقات الى عكا ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار ضمينا . يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معه الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتورته اسباب المتالف والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما في طريقه من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الفا دينار ومعه من نفقات الاجناد ودائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمح له خبر . ولم يظهر له اثر . فظنت به الظنون . وماتيقنت المنون . وكانت له لا شك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهي مجملة محتمله . فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهب حق اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب من حاله الناس . فلم يذهب بذهابه الذهب الذي صحبه . وطهره الله من الرجس وعنه اذهب .

ذكر وصول ولد ملك الالمان الذي قام مقام ابيه الى الفرنج بعكا

ذكرنا حديث الالماني وملم حادثه ، ومااداه اليه من دواعي كفره وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشري

رجب . ولقي في طريقه على اللاذقية الشجى والشجن والشجب . واذن ضعف خيلهم . بضعف ويلهم . ووجدت لهم مابين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت . وعلى اعواد عظامها سواد الغرابيب خطبت . وقد استقبله المركيس . وقصده التأنيس . وان يهديه بضلاله الى الطريق التي تؤمن طوارقها . ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقها . فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان . ووصل خبر وصولهم في سادسه الى السلطان . وحزرهم من شاهدهم في الطريق بخمسة عشر الفا . وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفا . ثم انتقل في البحر . الى عكا في موضع الحصر . ووصل اخر النهار سادس شهر رمضان . بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم يبق له وقع . ولم يحصل لخرق القوم به رقع . واقام بين جنودهم . كأحد كنودهم . وقال الفرنج: ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا . فانه لو اقام في موضعه . وامدنا بفيضه من منبعه . لهيبت عظمته . وعظمت هيبته . وارعب روعه وراع رعبه ورجي منا وخشي من المسلمين قربه . وقد قطع بنا منذ وصل . وحص لنا جناح نجاح حصل . ووصل في البحر وحده . ولم يستصحب جنده . ثم وصل اليه الاصحاب . وتقطعت بهم الاسباب . ثم رام ان يظهر لمجيئه وقعا . ويبدي له نفعا . ويثير لنفع غلة ثاره نقعا . فقال الام القعود عن القوم . ومابقي الا النهوض اليهم من اليوم . ولابد من ضرب المصاف معهم . واني على الخروج اليهم لادفعهم . فقالوا له انت ماارثت وهج قتالهم . ولااثرت نهج نصالهم . ولاحربت بحربهم . ولاكربت بكربهم . ولو حزبت بحزبهم . لاصحب جماحك لجماح صحبهم . فأبى ونبا . وشب الشبا . فلما عرفوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سهله . قالوا له نبتدىء بالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجل كرجل الدبى . وخيل اغصت الوهاد والربا . ومرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشعلوا الخرصان في ليل النقع عوض السرج . وقربوا من تل العياضية . وعليه خيم اليزكيه . والذوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلما

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الجدور . واوردت ظماء الظبى منهم ماء التامور . وانبعت بالنبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من اعناقهم الديون . وطيرت بإطارة السهام الى الاحداق بهم الاحداق . وخاطت الاماق ومااخطأت الارماق . وصار كل سهم شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان . فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتر . ونيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفره . فاعرضت بالوجوه المتنكرة . وابنا بالانوار المسفره . ومر الالماني متألما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكاوم قلبه متكلما . وقد عاين ماعاناه من العناء . وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء . وبلي مما بلي به من البلاء . وعلم ماجهله . واستصعب ماستهله . وذاق ماضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتلى رصعه لو تم صرعه . لكنه تجرع من الغصص ماسهل عليه الموت جرعه . وتاب وماثاب . وابى الرجوع الى اللقاء لما آب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره . واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة المينا عظيم الشان . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام والات ابرزوها . ومكر مكروه ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته وريب رأي رفعوا راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارهفوا غراره . وعنان عناد اطلقوه ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها وعقله معالقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على . راس

صاريه . لايطاوله طود ولايباريه . وقد حشي حشاه بالنفط والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته .أعدى اليه بآفاته . ورميت فيه النار فاحترق . واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولي النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب يسري فيها النفط ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن التي لنا بالمينا و ردوها . فتعدي عدوانها . وتنير وتسدي فيها نيرانها وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللشر مستمدون .حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس ماقدروه واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا . فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج الصاري وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعادت على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشبع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قداح الرأي في مكر مكرهم . وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . منفرد عن البلد في وسط البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلطنا على مراكبهم التي في المينا . واذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيرا فلأي سبب جينا . ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعليناه . وبالعدد والرجال قوبيناه . وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولاحولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريفه . وصعد الرجال اليه في تجاويفه . وتعبوا في ذلك أياما وشبعوا تتوشيقا واحكاما . وهو بمرأى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه . ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بتلك البطسة زاحفين . وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط . وتوالت امطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور دينه متناصرة . ودلائل نصر اوليائه متظاهره . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور . ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحذار الفرار وكادت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم .

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطاقة لنا اليوم وعادوا وقد غرموا ورغموا . واخلف ماعزموا وزعموا واشتغلوا بملء بطس لهم شحوما واحطابا وادهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهبوها . وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها . واذوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق . فانزل الله الفرج وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتده . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة للعادة خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بطس اولئك الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطربة الانابيب مستهلة الشآبيب

ذكر الكبش وحريقه
بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأذف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للغوائل غائلة . في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فكم سور اذا نطحته طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهذه الدبابة في هياة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها باعمدة الحديد . وكملوا لها اسباب الاحكام الشديد . ولبسوا رأسي الكبش بعد الحديد بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم يبق للنار اليها سبيل . ولاللعطب عليها دليل . وشحذوها بكماة المصاع . وحماة القراع . ورماة الحدق وكساة الحلق . وعفاة الحتف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من كل سرحان لاينظر الا من جلد أرقم . وكل شيطان لايقتحم من الحرب الا جهنم . وكل شجاع لايعتقل الا شجاعا . ولايرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولاانتجاعا . فلما استدفت لهم هـذه الدبـابه وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطـافت بـذلك الكبش تلك التيوس النبابه . وامنوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سووا بين يديها الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها وقروا بها اعينا بل انفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعج مـرآها . وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هيأتها . وعدة تـروع هيبتهـا . وبلي البلد من نذوها بالبلاء الداني . وتغاشت وتعاشت دونهـا نفس الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هـذه مـافي دفـع خـطرها حيلة . ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيم الامل . ومن للكبش العظيم وقطع رأسه. ومن لبناء الحديد ونقض أسـاسه . فإن كانت هذه الدبابة دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمـانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام بـرهانها ونصـبوا على صـوبها مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من حواليها . وطردت المطرفين بين يديها . ثـم رمـوها للحـزم بحـزم الحطب حتى طموا مابين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فتـرنم في أثنائها عجاج اللهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فـاشتعلت نار ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجـاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبينات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فاطفأوا نار الظـاهر ولم يعلمـوا بنار البـاطن . ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمـدوا الجمر . احمدوا الامر . ورجعـوا ولم يزل اللهـب يأكل سـقوفها . حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق . فانهد ذلك النيق . وصوح ذلك الروض الانيق . ووهن ذلك التركيب الوثيق . ونفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبـابة . وخـرج من بالثغر المحروس. باشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب لثلج صدره وبـرد يقينه حـره واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقـل في الة لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد أصـحابنا على عدوهـم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم ينشد وهو يذشء وينشد جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن الشقاء ادركهم،والشقاق اهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وان ترتيبهم مدمر . وأن الاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) (الصافات : ١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه الاجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر . وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك . وقد استصحب غلمانه الاكاديش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم رونق . وصفاء لم يشبه رنق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور . وأقدم العدى إقدام المتهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا . واضطرموا واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام . ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروح . وأخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم المجانيق بالاحجار . وأننت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بحد الاقدام . وافضى الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وأفلت وباله في وباله . وانهاض من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ القت الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتفريب.وفيها امراة محتشمة . غنية محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه المرجو .وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل الذفع وعم .وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج .هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضح الحق وتحقق. فاحضر السلطان الامراء الاكارم . ورجال الحقائق الضراغم . الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه .وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفائن ضمائرهم .واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم احداق العساكر وانما لايقدرون على القصد دفعة واحدة . الا اذا كانت أيديهم . متساعدة وآراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم واسرناهم . وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم .وأجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه . فخيمنا هناك على أحسن تعبيه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و حللنا التلاع والآكام . وركزنا بتلك الأعلام أعلام . ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين . ولأسباب التوقي من الأمطار مستجدين.

وأضحينا على تلك الاطواد موطدين . وعند تلك الاوتاد موتدين . وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة ، وتمكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . وأحبت الرجال التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق . وأنارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لراعفها . ونوب اليزك بحالها تدور وتروده وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب. والزحف يتعاقب، والاقران تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون . والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم . والرقاق بصليلها لشوق الجماجم تجمجم . والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل . ولاكارم الا للكلام . ولا سلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرح وألجم . وتقدم وأقدم . وأصم وصمم . وأضر وأضرم . ولاتله حتى تلهب . ولاتعج حتى تعجب . وأقطع وصل . وأكتل بصاع المصاع وكل . ولاتقلق والق وقلقل . ولكل داع إجابة . ولكل ساع اصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل شهم في المرام سوق . ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماء قدعه ، ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل عضب عض ، ولكل ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصب في التشجيع ، ومن له جراءة الهيجاء هاج الى الصريخ بالجد السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والذواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح في دياجير القتام متبلجة ، ولله نعمة في كل بلية ، وسر في كل قضية .

- ٦٠٧٦ -

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وماجرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الامير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف ينالتكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ماطلب غاية في الكرم الا ادرك ، وماكان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته للسرور ، فلقد كان جارا للكتائب ، بارا بالأباعد و الاقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قارا على قلق النوائب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طرير الشبا ، وحبه لعقد السودد معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على مايحبه ، وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ماأنهى ازهاره ، ومانضر نضارة ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاتراب الى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وآذن الزمان بعد الأجداء بالأجداب ، ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وماظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه مغزين على ظن أنه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع مايحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها و سميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الأسباب والأمور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه اليامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الاحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه وذهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له مااستحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة للهناء ، فاستأننه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه اصحابه . ولج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانه منزلته عند السلطان جهده ، وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ماا ستفادا .

فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغادى ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغلل ، واعلهم مأعراهم وعرتهم العلل ، وباؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، وأعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى فراره ، ومقضى قراره ، يخبر انه طواه، الطوى ، فنواه الذوى حين التوى ، من حذر التوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل ، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم في استعار ، فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال ، فقبلناهم واذفقنا فيهم وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ماا قووا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتندم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، واشرقهم جرعهم ، وعرقهم قرعهم ، واختلفهم خلف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ، ونلي ونقلق .ونفل ونفلق .ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز.ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق.ونخرج ونحرج.ونلج ونلجج ونضري ونضرب.ونغلي ونغلب ، ونجن ونجني ، وننيف ونفني ، ونرد ونرني ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونتصدى ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر.فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد ، وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال ، وأخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها ، وكان اليزك في تل العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ماتركت الاتراك ، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الامن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحي

تلبيه ، وقد امتـــزجت زجـــرات الجـــاووش ، بنعـــرات الجيوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهـر بقـرب البحر وصفوفها مشتدة مسـتدة ، والسـلطان في القلب كالقمـر في الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند الخروبة ، على المهاب الحـالية والحـالة المحبـــوبة ، ومقـــدموا ميمنته ، عظماء دولتـه ، صـاحب دمشـــق ولده المبجـــل ، الملك الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصـاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي حسام الدين بن لاجين : قـايماز النجمـي صـارم الدين ، والأمير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لايرجو منازلته الا من فيه بـان الباس ، ثم بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طـالما بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرهـا ، وعظمـاء الميسرة ومقـدموها ، وأمـــراؤها ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معـز الدين سـنجر شـاه صـــاحب الجـــزيرة ، والملك المظفـــر تقـــي الدين ذو الســـطوة المبيدة المبيرة ، وســـيف الدين علي المشـــطوب ، الذي نشـــب بناره الحـــروب ، ونصـــب على العدا منه الكروب ، والهـــكارية والمهـرانية ، والحميدية والزرزارية ، وأمـــراء القبـــائل مـــن الأكراد ، أقتال القتال وأجادل الجلاد ، ورجال الحلقـة المنصـورة واقفون في القلب ، لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب ، من كل فارس فراس ، وهـرماس رمـاس ، وضـيغم ضـاغم ، وضرغام غارم ، وليث فضفاض ، ملوث بفضفاض ، وقسور قاسر ، وهزبر زابر زائر ، واسد في غاب الأسـل ، وقـــارع في القـــراع بـــاب الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الاقران ، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارىء (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأمـوالهم) (التـــوبة ١١١) ثقـــة بـــوعد القرآن ، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر الجنان ، وســـابق الى حلبـــة الشـــهادة ، وســـامق على ذروة السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العـدا

عن الهدى بعاسل ، وسار الفرنج شرقي النهر لنا مواجهين ، والكريهة غير كارهين ، حتى وصلوا الى رأس النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فانقلبوا الى غربية ونزلوا على التل بينه وبين البحر ، والجاليشية الرماة منا حولهم جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا سائلة ، وجرح في ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث،ومانبا عن كثير منهم ناب النائب الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل مطيف محدق بهم كالأسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا أن يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون ، ساكنون ساكتون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ، ويغضبون فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم . وتفريج الغمة بنزع جمتهم . واحس العدو بالضعف . وانه متورط في الحتف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض . ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقن ان صح منه الثبات باذكساره . وعسكرنا يصافحهم بالصفاح . ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام . ويلهبهم بحدمات الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب . ويخيض في دأماه الدماء منهم سوابح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم ماء الفرند . ويغيظ بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند . وادبروا مولين . وارخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهم ويقلعهم . وهم مجتمعون في مسيرهم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون في سكون . ويتظاهرون في كمون . ويتطلعون في غروب . ويتفللون بغروب . ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمود . وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم . ولا

يصح لبينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وابلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما هماما . واسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروع اذا ابدى له ناجذيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا . وبنار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصفين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرخ ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما راموه.بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوح أبلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم.فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره .وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكند هرى ، وأقام ملك الالمان على عكا يبرى ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد .وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم . والأسد سائرة بالأسل في عرينهم . والحمية مشتعلة في عيونهم وعرانينهم .ونزلوا راس العين . وتطرق بها اليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين .ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيران النصال والمناصل لهم محرقه . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف . والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المذون من الأهداف . وما دارت بهم الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصوب وتطيل وتطول . وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما ابصر الفرنج ما حل بهم من العذاب . عدوا الغنيمة في الاياب، وشرعوا في طريق الذهاب . فعادوا من غربي النهر راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصمونهم . وقتل منهم خلق،وسرى في حجب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين . ورحلوا سحرا خاسئين خائبين . وخيولهم الناجية مجرحه . وقلوبهم الراجفة مقرحه . واشلاؤهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه . وعرفوا ان حركتهم الهلكه .وان هلكتهم في الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم مذفرد وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا من لحوم الخيل . وهم يدعون بالثبور والويل . ومع كثرتهم قلوا عناءا . وضلوا رجاءا وذلوا بلاءا . واعتلوا جدبا وغلاءا . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين من مراميهم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصحابنا وراءهم يطلبون ارداثهم . متعطشين الى دمائهم . يرمون ارواءهم ، وثبوا على جيادهم ، وثاروا لمراد مرادهم ، ولاقوا اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من مذبعهم ، فاندفع الاصحاب حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحذوا واجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيره متسعير . وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال.ولولا ما نفق من التياث مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حزب الشيطان! ولله في كل قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بـلألاء آلائه . ومـن آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة . ومتاجره الرابحة . انه رأى أن يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمـع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شـوال منتخبـي رجـاله . ومنتجبـي ابطاله وخواص أتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلاد جلادته . وفي لقاء العدا عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بـأن يكمنوا على سـاحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضـوا وكمنوا ليلة السـبت متنبهي الهمة . متيقظي العزيمة . وخرجت منهـم عدة يسـيرة بعـد الصباح . منادية بحي على الفلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما . واسرعوهم ضراما . فـطمع الفرنج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها . وبتت علائقهـا . وحثـت سـوابقها . واخاضت بحر الحرب سوابحها . وقد افاضت سـوابغها وشـامت صفائحها . وتجردت عن رجـالتها . وتفـردت بضـلالتها . وحملت بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطارد اصحابنا امـامها . وانهزموا قدامها . حتى وقفـوها على الكمين . واوقعـوها في الهلك المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها فرار . ولم يطـق مـن غرتـه ان يمضي غرارا . وكانت في مـائتي قنطاري ، من كل مقدم بـاروني وبـطل داوى واسـبتاري . فقتـل معظمهم . ووقـع في الأسر خـازن الملك وعدة مـن الافـرنسيسية ومقدمهم ، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقـطع بهـم سـبيهم . وما وصلهم اربهم . وجاء الخبر الينا . فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هنالك الاحسـان . وجـاءه مماليكه يقـودون اولئك الاعزة بخـزائم الذل . ويجـودون بمـا استخلصوه من ذلك القل ، ويقدمون المقدمين من سراة الاسـاري . وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى ومـا هـم بسـكارى)

(الحج ٢) فقد رضتهم اللدوت وقضقضتهم اليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدهون . وسيوف ذكور تتولد منها المذون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفدينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده أسيرا أحضره . فأنعم عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحبير الحبور لابسا . وقد جمع اولئك الأسراء . وما اسعد الله إلا في تلك الساعة اولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما آنسوا فاكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت نوبة اليزك لأخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فانفذنا اليه من مماليكينا سرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الأنفس بصنعها وقرت . ولما اصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين وللمنايا الى ناديهم منادين.فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم. وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقـومون فيهـم رجاءهم . حتى ابعدوهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مـرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهـم لبـاس الجلد لبـاس الجلاد . وفلقوا البيض بالبيض . وفلحوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بـالفضاء . وعروهـم بـالعراء ولتوهم بالتوت . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة مـن مقـدميهم . ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعـة اننت بـل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمـد لله الذي تـزكو انعمـه بسـقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في النوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجـل مصيرهم الى مصرعهم . لكنا مـاقدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتـظر مـايكون مـن العسـكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصـة الصـحة . ولزمـت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمـد لله على المهلة في السنتين . فأقمنا مع السـقام ، وسـقمنا في المقـام ، وصـبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقـامنا في هـذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومـامنا الا مـن التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديمة نيمته الالثـاث . والحمـد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهـاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شـمل الصـيف الرفيق . بشـمول الشـتاء العنيف . وانحرف حريف الخريف كانحراف مضـيف المصـيف . واشـتعلت

رؤوس الجبال شيبا للثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج . والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل الذيل وجرى . وطمر المطر هوادي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط للجهاد . وجمد الخمر . وخمد الجمر . وارتعدت الفرائص . وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامس الجو بالجوى المسيء يعدو ويعدي . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا . واشتغل الملوك بملازمة المشاتي . ومنادمة المواتي . ومناقلة المناقل . ومعالقة العقائل . ومعاقرة العقار . ومسامرة السمار ، ومداناة الدنان . واجتناء الجنان . ومناغاة الغواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف . وملامسة اللطائف واللطاف . فلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي . وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكترث بكارثه . ولم يحدث امرا لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره . وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما طهر بدم انجاس اعدائه ارضه . واستمر على بذل جهده في الجهاد . ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد . وقال انما أربأ بهذا الأرب . وأري راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله عذف الثلج . وما يبرد قلبي مع تقلب الحر والبرد الا برد النصر والفلح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها . والفرنج قد امنت غائلتها . وتكفي في مداومة قتالها في نوبها مقاتلتها . فانن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في الربيع . والرجوع الى مراد الروع المريع . وليأخذوا اسباب الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال المحققين في نصرة الحق للرجاء من اهل الغني والغناء والمضارب والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد,وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه وورود . ولقد تمت بأيامن ايامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات .ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أردنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكنا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الأصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاءه . وسر بفضائله اولياءه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والنفوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس بعودته متسهنة . والألسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه الزاهرة متفوهه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهة ولا شك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربيحه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجحه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد أمسى مقتل الكفر بكل سهم مصيب . وهو لمستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب . وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . واظهر الارتجاج والانزعاج ، ذقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخلوا ساحل عكا من ارعابها وارهابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان باذفاذ البدل الى البلد . من الثابتين في الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى البلد من البدل . فان المقيمين في عكا شكوا امراضا معترضه . واعراضا ممرضه ،وكثرة السواد مع قلة النفقة والزاد . وكان في البلد زهاء عشرين الف رجل من امير ومقدم وجندي . واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال . وغلمان ونواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على الموضع .موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ورأفة.وما افكر أن في ذلك مخافة وافة.فقد كان فيه امراء امروا الأمر والفوا الصبر ومانعوا الحصر . واجترأوا وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكامن المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم وينفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين ابي الهيجاء السمين . فانه انفق ما ادخره من الألوف والمئين ، مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق وهناك ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

يدفق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام . وتبدد بتبدد نظمهم النظام . والزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول . فخدموا على ان يعفيهم بالبذول . فلم يقبل منهم بذلا . والزم بنقل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا الا بعدلأي . وقد بلغوا في غي الرأى الى اقصى غاي . واكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين . واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين . واذهبوا الأيام بالمدافعه . وابطأوا عن فرض المسارعه . والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم . ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل عشرين اميرا مقدمهم الأحمد . سيف الدين المشطوب علي بن احمد . وامر السلطان بالمناداة في الابطال البطالين . ليحضروا لقبض النفقات وكان يحضر الجاووش في كل يوم مئين . ويصبح نواب الديوان في امرهم مرتبين . لحرصهم على توفير الدرهم . وبخلهم بالنفقة ويعدونها من المغرم . ومعظمهم من نصارى مصر ومن هو في نصرة النصارى . وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد ما يجب تحليله لايجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم القبط قطب . وفي الخبط خطب . وللشر شرك . وفي الحسن حسك . وللمشرك مشارك . والدين تارك فارك . ولهم اخلاق اخلاق . وطباع بالطبع اغلاق . تأوي للبخل والتبجيل الى التأويل . وتقلي لتكثير السوء في الخير سوى التقليل . وهم جالبون للغي . طالبون للبغي . كاسبون للذم . مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولي الخزانة . يرى الشح بما يجود به السلطان من الأمانة . واصنعهم في الكفاية عندهم امنعهم للاطلاق واعذقهم بالحذق أقذعهم ، وأعقدهم للحق أقدعهم . وأجودهم أرداهم ، وأضلهم أهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على الخيانة . مختلفون في الظاهر لابداء الصيانة . وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم . ويوحشونهم بخطابهم ويذفرون بكلامهم . ويقابلونهم بالجبه.ويعاملونهم بالنجه ، ويواجهونهم بالسوء ويسؤونهم في الوجه . ويشترطون في طلب الضمان . ويشترطون ماليس في

الامكان . ويطـردونهم بقبيح الزجـرة . ويكسرونهـم في صـحيح الأجرة . والسلطان يجود جـود السـحاب . ويأمـر بـالعطاء الحساب . وبجد حث الذواب . ويجد في بعث الأصـحاب . ويقـول انفقوا ولا تخشوا اقـلالا . وانهضـوا الرجـال خفـافا وثقـالا . ولاتـؤخروا شـغل اليوم الى غد. امهـالا او اهمالا . ولاتقدموا على هذا الفرض فرضا ولانفلا . ولاتعتقدوا ان لنا أهم من هذا الشغل شغلا . وذواب الديوان على عادة جهالتهم . وعادية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . ومادخل الثغر الا قليل من كثير . وماصح من البـدل الا بعضـه . ومـا قضى حـق الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقـوى اسـباب الضـعف . وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سـنة سـبع . فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لابنفع . وأقام الملك العـادل على البحر لازاحة علل الداخلين . واراحة قلوب الواصـلين . حتـى عاد الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جـانبهم . واقتنع البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصـلت مـن مصر بـالغلة بطس سبع . وكان لها للحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جمـاعتها ومساعدتها . ونقل مافيها من بضائع وحـوائج . وسـلع وروائج . ومأكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهـدهم . وانتهى الى الغاية جهدهم . فلما تسامعوا بـالبطس تسـارعوا الى الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب اهـل الثغـر . الى جـانب البحـر . فزحفوا زحفا شـديدا وحملوا جندلا وحـديدا . وأتـوا بسـلالم لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهـم حـولها كالمعصـم في السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . وللضـيق متصـادمين . فاندق بهم السلم المنصوب . وسطا بعصابهم المعصوب بها لنصـب سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا كؤوس المنايا وتسـاقوا . ورأوا غمـرات الموت فـزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه . وألفوا الأجل كامنا فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع . واطالوا بشبا العوالي للعوافي باع الأشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على اعقابهم ناكصين . ومن حسابهم ناقصين . ولاشتغال الناس بكشف ماعرا من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهائهم بثقل الغلة . عن نقل الغلة . وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضرب بها الحشف . وأذهب بكسرها كل مافيها وأتلف . وغرق من كان فيها . وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . ونامروا والقدر منتبه . وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته . وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدروهم وصدوا عنها بنحورهم . وبذوها بأبدانهم الى أن بذوا ذلك البدن . وعمروا ماخرب وقووا ماوهن . وقتلوا وجرحوا من العدو خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب عن طريح صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطليح للعقير قريع . وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الأمراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد بهلاكه ألم الألمانية . واذسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر الى سقر . كند كبير يقال له كندتيباط دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس . ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا . وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم الجلائل . من كل آنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصوغة نضارية . وآلة فضية وأباريق وأكواب وأقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح . وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب . ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب . واظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون . وليمين الايمان مصافحون . فلما اكرموا بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمة ، وأسلم منهم شطرهم . وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهدية مائدة فضية عظيمة وعليها مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا . فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتهم بها اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ماأظن في الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه . وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر حباله ومعهم ملوطة . مكللة باللؤلؤ منوطة . وبأزرار الجوهر مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الالمان . واسر فيه رجل كبير قيل انه ابن اخته وهو كبير الشان . وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع . واشرفت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مكارمه المكاره . ونزع بلبسة إفضاله لباس الخمول ذوو الفضل النابه . واعاد روح السلطان باعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه . وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العلاقة . وروى رأيه بري رأيه . وتلقن آيات النصر من نص آيه . وانتعش عثاري بمقدمه . وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا أملي . وقوي عملي ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبه قدري ونوه بذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي .وسن غربي واسنى غاربي . واقرني وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان استكتبني فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويت به لاقويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولاتوليت . فانا شاكر نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سبع . ومافي لقائه للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومن ذوي الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مساورا . ولكل هول مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فاذا هو الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الأكراد . كانوا من الآساد . ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية المعجبة المحسنة . ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط . واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا عواديها بعواديهم . وظفرت اساطيلنا وطالت . ووصلت اليها وصالت . ونالت من الظفر مانالت . وأحرقت للكفر شواني برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه أمير مبارز كالاسد الخادر لايصحر الا للفريسة ولايبرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن ارككز ، فشين الشيني وشأنه . وماأعانته أعوانه . وامتلأت بالأعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

أركانه . واضطرمت باهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده يجالد . ويجد ويجاهد . وقد اثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به العزم الشديد السديد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد . والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولا استطاع الانقياد بالطوع . ولامكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشاني بشنآنه . ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولاتعسر ويسر . فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك أن لم تعطنا اليد وثبت على هذه القدم . فقال ماأضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير . ولايخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كندا أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاه . فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه . وقوي عليه ومافارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر . وسعداء المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضي بن قريش الكاتب . وكان صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم . مهيبا يخشى مرهوبا لايغشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع . ولرأيه ري وريا . وتدبيره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية دينا ودنيا . ولم يكن له في الكفاية كفء . ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفء . وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى دينار فاذفضلا على التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

الشتري ووثب وثوب المجتري وطعنه بمديته . وهو آمن من في خيمته . وفتك به فتك اللعين ابي لؤلؤة بالفاروق . وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله . ومضى بسلك سبله . فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لولم يعاجلوه . ففجع المنصب بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ولزور الربيع ريث . وللسحب سح . وللضح شح . ولعين الشمس غض . ولوجه الغيم ومض ولأيدي العارض بسط وقبض . ولذواظر البرق تنبه وغمض . ولذواجذ البرد كشر وعض . ولفص الفصل ختم وفض . وكل صاد في بحر كاذون كذون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسذون . وللأوحال أحوال . وللأهواء أهوال . وللشمال شمول . وما للقبول قبول . وللجنوب نذوب . وللدبور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا صبابات وصبابات . وللندى الندي جنايات وسرايات . وللجو الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي الرباب عمائم . وللذكباء ذكبات . ولشبا شباط شبات . وللرواعد رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفة وعتو . وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابته في زوايا الثلوج النازلة خفايا . وألعواصف القواصف عواص غير قواص . والعارض عارض للحب في العراص عراص . والقوارس قوارص . والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه . والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم . والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا . ولتجهيز البدل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد . وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض الذواب في ذلك واليهم يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . ويذفق فيهم الأموال . والأمر مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

سنية . ولوافح عزماتهم ذاكية وذوافح مكرماتهم ذكية . والمماليك الخواص ومن خصهم وعمهم الاستخلاص . يغادرون به ولايبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضالة ضلاله ناشد . ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة في المشقة التي تعدها الأشقياء من الشقاء . ان وجدوا غرة اهتبلوها . او استوعروا كرة استسهلوها . او صادفوا ملمة صدقوها . أولقواغمه كشفوها ، او صرفوا أوجههم الى نائبة صرفوها .

ذكر ماتجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث

في يوم الأربعاء تاسع المحرم ، سار الملك الظاهر لقصد بلد صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي من اصحاب الأطراف السفر . فان السلطان رخص لهم في ذلك . فانتهجوا في عودتهم الى بلادهم المسالك . وأقام السلطان في اصحابه . وخواصه وملازمي بابه . وملابسي جنابه . ورجال رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك المظفر تقي الدين ليتسلم مافي شرقي الفرات . من البلاد التي كانت مع مظفر الدين . مضافة الى ميافارقين . فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسميساط والموزر وميافارقين . وشرط معه ان يحافظ على عهد صاحبي آمد وماردين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء منها للطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من يشترط الفسحة له في استضافة ديار بكر الى بلاده . ويقال له لاسبيل الى قصد أحد ولاانتزاع بلد ولازالة يد . فان أرباب البلاد اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاقد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متباعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهي . وبلغت المنتهى . وأنا ادخل على الشرط وعنه لاأخرج وأجمع العساكر والى نصركم مورد في الروع ومصدر ، ومازال يستسعف السلطان عمه . ويسترهف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى اخذ دستوره . واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع ايابه ،ويحكم في العود اسبابه . واذما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لاتدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار ولله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون . غير ماكان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم ايضا ابقارا وآب قارا . وسار بالغنيمة سارا . وأهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . ففرق في بحر الأسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا . وماهديتا بل اهديتا . وشاهدت الأسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على الذين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا من البلد على العدو بالنائب الاعضل والناب الاعصل . وكبسوه في مخيمه . وخيموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتى اسروا من الفرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوهم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين . كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي.وفي الأحد ثالث هذا الشهر . شهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت النوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعه . وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش . وهذا الخصي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفر للاسلام بحمل النحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج . ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف . فأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد الساحل . ويكمن بعسكره وراء التل الذي كانت فيه قديما منزلته . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصبة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الاول . مستظهرا بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليستأنسوا بالحرب ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولاجسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصل اليه من بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحثية . وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام . وعامت في بحر لياليه وايامه الأعوام . وهو ممسوخ الحليه . ممسوح اللحية . قد بلى مما بلي . وقلي من طول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لذاته ولذاته وما عدم . وكم جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتى لم يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا ذهابه . فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعه . واختياره الضيق على الارجاء الواسعة . فسأله كم بينه وبين وطنه . ولأي سبب حركته من سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بالاطلاق . واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفرنج راكبا على فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله خدام اولاده الصغار . ان يأذن لهم في تجريب سيوفهم بجرح الاسارى الكفار . فلم يأذن لهم في ذلك واباه . فأرضى كل منهم بامتثال الأمر الذي أباه . فقيل له:لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم . فقال لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر . وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقربه ومجاورته الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقدم في ذلك التاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وقد استصحب معه مماليكه الترك . وقد ذوى بالمشركين الفتك . ولسترهم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواضبه . وصوافنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه واظمأ جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فعن

ذلك اليوم من القادمين والمتستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيل تردد أماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافاته الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع . ومن ديمته وبل الذبل من الاحداق والذواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لا عرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البث والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب . ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . وافلت من يده وطار . وحشا حشاه الباز الذي نار النار . ووقع على سور عكا . وحزن الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى وما آب . وثبت وما ثاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى السلطان انفذوه . فأبدى للسرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده للظفر والمنحة فألا . وبذل فيه الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها . ويجرون بجواريها . وينهضون بسواريها وروا سيها . وينهشون بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم . واسروهم باسرهم وسبوهم . وبغتوهم من البلاء بما اتوهم به وبلوهم . وكنسوا كل ما كان في الكنيسة . من الاعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم . ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا . واقتسموها خرصا . وزادوا بما نالوه حرصا . واستغنوا مما استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل الذبل ديمه ، وركبوا باسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل أرهف حد عزمه . وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالأعناق . واعتناق الغلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شده . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقرير . وحمل له هدايا . وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . ومابطشت يد عادمة الا يد كيد الكيد . واستولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امواله الغزيرة . وسيأتي ذكر وروده ، وماتم به لاحزاب الشيطان وجنوده وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة . وبالنجح متجددة . وهو ان اصحابنا اخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مراكب الانكتير خمسة وطرادة . ولم تكن لولا اباء رجالها الضيم معتاده . وبحزام القهر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخاير من عدة ومال ، واثقال واذفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطرادة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فاما السبايا فقد اخرجن على البيع بالنقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بالجد والجلد . والعدد والعدد والمدى والمدد والجمع المحتشد والجمر المتقد . والبيض والبلب . والبيض والقضب . والسمر السلب . والجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج . والقصد بالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والاوباش والاوشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضباع . والضواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والحمر والسود . ودبوا ودبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبوا . وغبوا وعبوا وجابوا وجبوا . وزحموا ورجموا . واقدموا وتقدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كانها تلاع . وهي في الجو مترامية . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاض الجدار . منفضة اسواؤها لانفضاض الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قائمة قاعدة . بارقة راعدة . صادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال اجنتها . وحنايا الحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجار . ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق . صوائل بالفلق على الخلق . مطايا للمنايا . روايا لخباياها البلايا . في كفاتها افاتها . وفي حركاتها ادراكاتها . وللتعنيب عذباتها . وللترهيب جذباتها . وما اعظم جنايات جنادلها . واظلم غوايات غوائلها . وهي الروائم الروامي . والحوائم الحوامي . والهوادم بالهوادي . والصوادم الصوادي . ودواعي العوادي . وذواعي الذوادي . والذواعب بالذوى . والجوائب بالجوى . والصوائب بالمصائب . والذوائب بالشوائب . اذا جذبت جذت . واذا قذفت اقذت . واذا طوحت طرحت . واذا حلقت حلقت . واذا اطارت ابارت . واذا القت القمت . فشق على اصحابنا بالبلد شقاقها . وكادت تفتح اليه الطريق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا وانهضوا . وحضوا على حظنا وحظهم وحرضوا . واستنفروا . واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبا في العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسير من كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العساكر عنه ومر الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب . ونكايتها في الضر والضرب . وعرف اماكن القتال . ومكامن الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظل . ذل جمعهم وكل . وترك الزحف واذفل . واذا عادوا وعدوا . وانارو في الحرب واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه . وفطموه رضيعا له ثلاثة اشهر في غير أوان فطمه . واستحلوا بحكم الجهاد في جنح الظلام ظلامه . وفجعوها بواحدها وساعدها . وكدروا صفو

مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدها . وحرموه در لبنها فدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . والخد خادشه . والوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد شدهت ودهشت . وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها . مذ سلب طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين ترجيعها . وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها . وهي نائحة في كل ناحية نادبة في كل ناد . نادية لكل فؤاد . عادية في كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب هاتفه . وللدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد رضيعها . معولة على الطفل معولة على اللطف . متذكرة من الذكر متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . ونار اكتئابها ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها . تبكي ببكائها . وتشكي من دائها . وتنشد ضالتها . وتطلب مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها . فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينه . متجننة متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها . ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وسلك بفضله طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقيل له انه بيع واضيع . فان آخذيه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه . ويلوم باذله كيف لم يصنه . حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها . وأسا ماا ساء الاسى من جروحها وقروحها . وروحها بروحها . وفرع دوحها . واغناها بغنائها الشكر عن ذوحها . وظهر سر سرورها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ماا شتراه من مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياديه .

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم . وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب الذوم بكل حد مرهوب وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دائية . انتقل السلطان الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة . بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه ان القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فامر الجاووش حتى نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليزك . والزم المقدمين والامراء بحفظ ذوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قلتها خرج بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها جنانا . بل تصرف على عناده ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجثمه . والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة . ونزل في خيمة لطيفة لأجله مضروبة . وصل من اليزك من اخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ماكان فيه وزحف . وانه قد ارعب وارعف . وأرهق وأرهف . والهى والهف . وأرهب وأرهج . وأعجز وأزعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وأنار . فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم فأعادها . واستنهض الى الفريسة أسادها . واجرى في حلبة الحمية جيادها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل . وضرب يرنح اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظاهر العلو . والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهم ويغاديهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا . وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية . ورمي كما حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمه . والرمي مديمه . وبالاحجار متقاطره . وعلى الاقطار حاجزة . والجلاميد قارعه . والصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق . فدنوا منه دنو المحنق . وشرعوا في هجمه . واسرعوا الى طمه . ودامروا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم . واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلهم قد اقتسموا فريقين . وافترقوا قسمين ففريق يلقي من الخندق ماالقي فيه . وفريق يقارع العدو ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير . واظهروا انه في الجمع الكثير والجم الغفير . وكانت معه من الشواني خمس وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضاهي تلعة وتوازي قلعه . وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفوس لوعة . ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفاس للشرارة متصاعدة . وألسنة للشعل نضناضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصول اولئك الشرار شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كانوا من أهل النار

ببرهانهم . وأتتهم باتيانهم . وأضافتهم في مكانهم . وملك الملك بامره أمرهم . وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين . وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد آبارا . وأثر في المكر آثارا . وأرث للشر نارا . وأنار لنصرة النصرانية ثارا . وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به من تأثيره وتاريثه(٥١) . وارتابوا وارتاعوا . والتاحوا والتاعوا . وغدت الألسنة ترجف والقلوب تجف . وكاد الباسل يجبن . والباطل يخشن . والحق يلين . والدين يدين والسلطان قوي الجنان . روي الايمان . صاف يقينه . واف دينه . شاف نصحه . كاف نجحه . مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معاشه . متأن في تفكره ، متأت في تدبره . متوكل على ربه في نصرة دينه . متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتروعه المخافات ولاتخيفه الرائعات . ولاتزعزع الخطوب طود وقاره . ولاتفض الذوائب خيم ذماره . ولايلين للشدائد . ولايستكين للروائع الرواعد . وكم سكن الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببركاته ونام الأنام ليقظانه ، وآمنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمه لما درى . ولارد وجهه عما قصد . ولاصدف رأيه عما عليه اعتمد . بل ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة . وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الاذكتير ان جمع كفره للتبتير . وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة من نحور أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبا في كتائبها . لتحتبي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها . بخيل تأبى الضيم مثل إبائه . وفخر مثار النقع يذوب عن لوائه . ووجه كلمع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام السلطان على هذه الحالة . ساميا في مطالع الجلالة . لم ينض سلاحه . ولم يخفض جناحه . ولم يركز رماحه . ولم يردع للروع مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزادها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلأها غلة وذخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكي . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكتير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوانية . وقاتلتها نصف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فاكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خلق عليها . وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن استقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشح بالدين أحب الينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها . وافترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الوقعة أول حادثة للوهن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الاسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد أظهرت لها في الشر غائله . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقربوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصحابنا يطلبون الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشد قراع . وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قوارير الذفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد . وتذبو عن الاحراق وتذبي عن الاخفاق .حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم في الالتهاب . فعوناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب . ومن حر انفاسها برد النفوس . وكشف شعاعها ظلم الكروب . ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور . ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها . فاحرقها الله احراق أهلها بذنوبها . وكما أضاءت الافاق بنيرانها . اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أذواره بالامداد . فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة . وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتا لتلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو دق الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العدو بالذفائس والذفوس . ولما اصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته . فعلمنا بزحفه . وعملنا في حتفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم لامن حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبرد . مضمر للجرد . فضفاض السرد . قضقاض كالاسد الورد . مشتاق الى الطرد . ملتاح من ماء الوريد الى الورد . من الترك والأكاديش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب . ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب . وكل ثمل كأنه نزيف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره . وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم السوابح السوابق في بحور الأعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق الشاكي . وكل مصمم مصمم درعه غير محقبه . وسهامه غير مجعبه . وسيوفه غير مقروبه . وقبابه لمداومة اجراء فيه غير مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله . وابيضت بلمع التراثك مذاهب قسطله . واشتبهت في الذقع الوان خيله . وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله . فكانما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب . وعد الذقع في وبل الذبل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم . وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى وصلوا الى القدور على اثافيها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون . ويعلون من دمائهم وينهلون . ودخل الظهر وحمي الحر . فافترق الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت من أشدها واجدها كريهة . غير انه في هذه الذوبة عرضت نبوة . وكادت تتم كبوة. فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبي سوابقهم . فانتشب الحرب . واستجر الطعن والضرب . وكثرت الجراحات . وكرثت الاجتراحات . واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل من المشركين جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الوقعة . أن رجلا من مازندران من اهل الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأذن وقت السلام على السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد . فلقي الله بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارسا وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا من جانب البحر أطلالا . وتحزبوا في ذلك الفضاء أحزابا . وركب السلطان من مجالس عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبارة العدو وإبادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت . وجحمت نار اقدامها وما احجمت . ومازالت نجوم النصول تدقض . وختوم النحور تدفض . وعيون العيون ترفض . وديون النحول وحقوق الحقود تقتضي وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغائب ، ونكباء لها من الذوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السوابح . وشرب بكاس المنية منها المهج غوابق صوابح . وغبراء اساود نبالها تتواثب عن عقارب القسي . وثعالب لهاذم صعادها تتلاعب في أراقم السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبان راياتها تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب . وغران سوابقها تغيض في غطامط الغياهب . وارواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضارية على

الردى جريه . حتى دخل على ليل الذقع الليل . وجرى من ديمة الدم السيل . والتفت لما التفت بالخيل الخيل . وأفرج المازق عن قتلى جرى عليها من السوافي الذيل . واستشهد من المسلمين بدوي وكردي . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي . وعليها من زفير جهنم دوي . وأسر من العدو فارس بفرسه . ولامته وقونسه(٥٢) . وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى . وقد عم من الشجب ما شجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد أخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواضب يفرين . وطوالع غروب في الطلى يغربن وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء . ويوافقه القضاء في المضاء.وكل معتقل للرديني اخف الى الوغى من سنانه . وكل مشتمل للمشرفي خضيب الغرار ريانه . وكل ملتم بعثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة . وامتد راجلنا أمامهم . واثبتوا اقدامهم . وطال القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣) وأعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب ذوره بين يديه الى دار القرار . وأسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان . والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا أنهما لأخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . وأخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك . صادفت في الاجتياز بها أخاها هذا الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدرا ما النجاة من تلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فاكرم السلطان وفادتهما . وأجزل بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المركيس أنه هرب الى صور . وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبا قبوله . وانقطع وصوله . وكان سبب نفاره . وموجب استشعاره . ان هنفري كانت زوجته ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده . وسواء في هذا الميراث . بين الذكور والاناث . فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى . فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجته الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة. وبقيت هذه زوجة هنفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهل الملك لتكون الملكة لك زوجة . ولا بد لي من تقويم هذا الامر حتى لا أبقي فيه عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخذها له عروسا . وأحضر لنكاحها قسوسا . وقيل انها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلما جاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفري والملك العتيق فانفتح بذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قر. وأخذ معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سنجار . وقد سد بسواد عديده النهار . وأفاض ببياض حديده الانوار . ومقدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السديد . والالمعي اللوذعي . والكميش الكمي . والذقاب الذقي . والعف التقي . وهو ذو همة في الغزو عالية . وعزمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية . وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر ممايلي النيب . وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان مكرما الى جنبه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني جمادى الاخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري دي الزند الوري والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير الاسدية . أسد العرين . الشم العرانين . الغر الميامين . وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبها . فركب السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بآساده في عريسه . مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل والجياد مراقبها . وخيل كانها الظلماء والترائك كواكبها . ونقع كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه . وتملا الوهاد طوالعه وغوارب . عاريات غروبه . عاليات غواربه . ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء . وساق على تعبيته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

واحضر له اسباب تكرمته . وآنسة باذبساطه . ونظمه مع اصحابه في سمط سماطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حباحبه . وخصه بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايليق به من كل باب . وانصرف عنه ونزل علي ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بباسها جانية . وقد علمت الوقائع انها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فما نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها . وابرزت لعينه قناها وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قسيها . ثم جاءت والقيت بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه . واسلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليها بأفاته . واعانت جـــــــــــــــــــوانبه مهـــــــــــــــــــــــدومة . ونواجزه مهدومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد من عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخلا بالهم عليه الخلد ، وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بها فيالقهم . ونحن لا نألوا في الجهاد جهدا ولانترك جدا . ولا نجد من مضايقهم بكل نوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق راسه وحلق لحيته . واستلقى لانتظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وسكنوا وسكتوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب فيثبوا ، وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمره ، وانسداد ثغره .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائما في المقام الكريم . وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح . وانشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح . وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح . وشارك في الجهاد وشد الأزر . وسدد الأمر وآزر وعضد . وظاهر واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم . واستضرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمرهم . واخذوا فيه ذقوبا . وحكموا في الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد اشرف . والعدو بخندقه محتجز . ولفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن جثوم الموت عليه في مجثمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر بلطفه . ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه . والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج . ووضح لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين الثلم . ويجلون عنهم بما يشبون من نيران الظبا الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمح من امر الأصحاب الى الأصحاب . ويكفي هذه النوبة الصعبة فهو كافي النوب الصعاب .

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفت بعدتها المناجده . ووافت بعدتها المنى جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيج . وماجت موج البحار في غدير الزغف الذسيج . واستهلت استهلال الرواعد البـوارق . وألمت بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جـاءت في وقتهـا منجـدة مـن جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده . واسـتظهر الاسـلام بظهورها . وسفرت وجـوه النصر بسـفورها . فـأحجم الكفـر باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سـهامها . وخيمـت مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختـام قتـامها . وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه . وابعث امداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشـد بجميع ملوكه . وغصـت مسـالكه وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في حصر الثغر ونصب آلاته . وركب عليه منجنيقـاته . ووالى الضروب من الضرب . واخذ منه مواضع في الذقب . وقد اشـفى على خـطر عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهـذا اوان رفض التـواني . ونهوض المسلمين من الاقاصي والاداني . والوصول بكل مـا يقـدر عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجـد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فللاعذار اوقات ، ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سـواه التفـات . وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقـاعد عن هـذا المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذ ايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عليه يعرض . ليعلم في الأول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكتير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا حرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خاليين من مقتضيات المرج . وكلاكما عن عسكره مذفرد . ولحديثه في الخلوة مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لايفهم بلساني وانا لا افهم بلسانه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجماته . فيكون ذلك الترجمان رسولا . فلعله يرد بسول ويصدر رسولا . فلما لح في الطلب . وألح في الأرب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . ويخل وقد أخذ أمانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا ان ملوكهم منعوه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكتير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاع من تأمر الفرنج عليه واحكام . وقال الأمور مفوضة الي . وأنا أحكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفاتني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه . وإن دامت بينهم الحرب والمعاداه . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حمله وقبوله . وأخذه من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاة . واستدامة المكافأة للموازاه . فقال عندنا بزاة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعفت فهي طلائح روازح ، وذريد طيرا ووجاجا (٥٤)تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها الهدية على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة . واسلك غير

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هل لكم حديث . فقلنا انتم طلبتونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعه اسير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واوصل الى السلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثه . وهؤلاء طلبوا الملك فاكهة وثلجا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسالات تفتير العزمات وهم مشتغلون بموالاة الرمى بالمنجنيقات وتسوية المنصوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعفت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقوى . كي يثوى . واهل المدينة قد كثر تعبهم لكثرة الذوب ولقلة العدد والحجر هاتك . والسهر ناهك . والعمل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشاق متعبه . والاحوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنيقات تنصب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصب . فلما اشتد الزحف . وزاد الضعف . احتاجوا الى رجال المنجنيق للمقاتلة . والتناوب على المنازله . وهناك ظهر ان العدد لايقي ولايفي . وان القليل لايكف ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجل دخول البدل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتداء في الاعطاء جلب في الانتهاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الاخرة يوم الثلاثاء . بما عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب من خيامهم ماتطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهارا . وامسى السلطان تلك الليلة ساهدا لم يذق طعاما . ولم يستطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلقي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخاوف . وكل من الضرب في جبينه شامة . والطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :

في غداة صباحها في حداد
نسجتها ايدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتال اشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهايته . ولم يبق الا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئا.ولم تنجحوا في الذب عنه سعيا . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولاقوة الا بالله لانملك لانفسنا ضرا ولانفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغرة من تلك الثغر افرنجي . كأنه جني مستشيط نجي . وهو يدافع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقته لجسمه صدفا . وصار لسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه الذشاب

القذفذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امراة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصماءها وتدمي . فلم تزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح . وقلة البدل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امنه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ماعاملنا كم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم مماليكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، وأغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه)(التوبه ١٢٣). وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالغرض المطلوب . قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الأمير الكبير ، والمسشتار والمشير ، قد اشتغل باله . فسواه ماباله . وعمروا بركوسا . ورأوا في هربهم رأيا مذكوسا وربحا في دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم الأمر الشاسع . وجاؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فنمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعة . وانهم خرجوا الله وله عن الطاعه . وانهم جبذوا عن بذل الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وأبدلوا الاضاءة بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الأمراء المعروفين . وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرتاش بن جاولي . وهو شاب أول ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر . ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل . المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل فلم تعد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم . وعاديا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين . وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته . ووقع بعد ذلك في الأسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم السور في مواضع الذقب . وعظم الخطب . واشتدت الحرب واشفى البلد واشرف . واشتفى العدو بما فيه واسرف . ولما لج العدو في الزحف . واستسهل في التطرف الى البلد طريق الحتف . ركبنا في عسكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم . والى مطمحه البعيد من أمره مرتم . ولما عاين اصحابنا بالبلد ماعليه من الخطر . وانهم قد اشفوا على الغرر . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه . وأعمى قلبه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم . وباءوا بوبال غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم . وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام . قد استحلوا مر الحمام . وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الأعداء اضعاف أعدادهم . وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا ايديهم في القوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من الذقوب ، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب . ونحن وان كنا للقوم مضايقين وبهم محدقين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين ، فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون انهم ان خرجوا الينا في تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ، والله قدر لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايغالب في حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطاقة في دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس . وحمي الوطيس وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نعيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمعه ، ولرحى الحرب الزبون جعجعة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجيات راعدة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . ونشاوى الدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان . وصفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في آجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى احجامها . ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاده . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من الذورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن انفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز انوفهم ، ولوصح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، واصبح يوم العسكر الجمعة العاشر ، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه اسنته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفة . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

أقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولأذى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الأفرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد انس الفرنج به لتردده في الرسالات نحوهم في سالف الأزمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من بعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك مالايدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط . فانفذ السلطان الملكين العادل والأفضل . ليفصلا المجمل . ويجملا اذا حزا (٥٥)المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر ، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدومه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم . وباشروا الأسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا. حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

- ٦١٢٧ -

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشتطروا اعادة جميع البلد . واطلاق اساراهم من الأقياد . فبذل لهم تسليم عكا بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسير . فلم يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج بحور جموعها الزاخرة وسالت الى ثغر البلد سيل الآتي الى القرار . وطلعت في السور المهدوم . طلوع الأوعال في فرج الأوعار . وانحدر عليهم اصحابنا انحدار الصخور المدهدهة ، وفرسوهم فرس الأساد المحرجة المكرهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صد ، ومازالت الكرات تتناوب والحملات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخرج سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار وألف دينار للمركيس وأربعة الاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه ، وأعطاف أعلامهم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وماأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء ، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في ديار بكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصونه ، وماكان يضبطه السلطان الى هـذه الغـاية لو لم يكن الله في عونه ، ونقـل الثقـل تلك الليلة الى منزله الأول بشـفر عم ، وأقام بخيمة لطيفة متلهفا على ماتم ، ثم انتقـل سـحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صـابرا على حـكم القضـاء المبرم ، وحضرنا عنده وهـو مغتـم ، وبـالتدبير للمسـتقبل مهتم ، فعزيناه وسليناه ، وقلنا هـذه بلدة ممـا فتحـه الله وقـد استعادها عداه ، وقلت له ان ذهبـت مـدينة فمـا ذهـب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشتها بعد الحـادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعـة مـن بقـاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم أقوش ، رسـولا ندبـه بهاء الدين قراقوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية المذلة الفظيعة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الأسـارى وصـليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وان تـأخر شيء مـن ذلك بقينا تحـت الأسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر آخر ، فأحضر السلطان الأكابر وفاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسـلمون ، فتقبـل السـلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفـرنج على عكا هـذه الرسـالة وسيرت بها كتبا

قد عرف أمر عكا وأن العـدو قصـدها ورصـدها ونزلهـا ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليهـا بـكلكلة . وحفـل عندهـا بجحفلة . وتواصلت اليها جموعه أفواجا . وجلب البحـر نحـوها على أثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهـت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمـدادها بحـارا . وبـرد الماء

بأهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد نارا . وتصل مراكبهم كأنها الأعلام السود . والامواج ناشرة بيض اعلامها، مالئة جبالها بأكامها . مازجة اصباحها باظلامها .

وتتنافس ملوكهم البغاثة . وطواغيتهم الطاغية . في الورود بنفوسها ونفائسها . والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها . مستخرجة ضمائر خزائنها . مستفرغة نخائر مكامنها . موضعة ظعائن ضغائنها . مستبضعة متاع متاعها . مسرعة الى معاطن معاطيها . وترد بقناطير أموالها، وجماهير رجالها . ومساعير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقاتلون أبراجها بالابراج . ويسومون جدتها بالانهاج . ويرومون علاج كرامها بمراماة الاعلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افواه خنادقها أحجارا . ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال . ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا، ويدبون اليها للمضايقة خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق . كانه حامل على الطلق . لاتلد إلا أمات الدواهي . ولاتدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهي . ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفا . حتى يعود نافرهم للمذون ألوفا . وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه المدة . سوى من هلك بالضائقة والشدة . خمسين ألفا قولا لايتسمح فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هذه السنة . والحالة في تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث . وتحدثوا في الحادث . وثاروا للثأر . وزاروا بالزار . وانبرى ملكا افرنسيس وانكتير . وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاؤوا في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحر منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول . وحملوا فيها الخيالة والخيول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطسة كانها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجوم

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر من البر والبحر . واحاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسوار بالأسوار . والظلماء بالانوار . ومنعت الداخل والخارج . وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهج . وزاحفوه بكل منجيق كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم عندها القيامة . وكل سلم لاترجي معه العلامة . وكل آلة آلت إن الفتح منها بالحتف . وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوي الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق . وسور وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه . وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولايدخل إليه لضيق مسالكه . وهو متحرر متحرس . متستر متترس . عاص على الهجم . عاس على العجم . لايقتحم سده . ولاينثلم حده . ولم تزل الحالة تتمادى والواقعة وليدها لاينادى . والمدى يتطاول . والمدد يتواصل . والقضية تترامى . والرمية تتقاضى . ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون(٥٦) . فمن مستشهد عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القرح . ومن دام بالجرح رام عنه . ومن نازع في القوس نازع منه ، ومن متعرض للموت خوف عار عارض . ومن ناه عن السلم آمر بالحرب ناهض . ومن ندب فيه ندوب . ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب . حتى ضج الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظل المصابرة يقلص . والعدم يتمكن من الوجود . والقيام للاثخان في زي القعود . وكاد البقاء يودع الباقين . والمذون تلاقي الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تاخر وتستر . واستشعر الذعر فتعذر وتحذر . واستبدل الجبن من الشجاعة . واستملى العجز من الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظن إنه لانجاح له في العزيمة . ولا نجاة له إلا في الهزيمة . وجنب أمثاله من الجبناء . وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فأضعف قلوب البقية استشعارا . وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم . ومابرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة وملافحة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على الخنادق التي طمت . ورمي في خروقها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلمة إلى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالذقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت مرابيه . وكثرت ندوب ذقوبة . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو بالسوء الى السور . وطرق الظلمة الى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالذقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مراميه . وكثرت ندوب ذقوبه . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو في الذقب فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقي الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل الذقابون يوسعون ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت ذلولا . وتعاذقت الاسياف فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان وأصحابنا لايهولهم الهائل ولايميلهم ألى الحذار الجدار المائل . ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو ذثروه . واذا نهضوا له اقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدروه . واذا بادر اليهم بدروه وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا . ومازالوا يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع . ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بألسنة المناصل .

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفاح . ويتماشون بمراح الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن الستائر الى الستور . ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح . ومن المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائح . ورزايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي القاسية . ورشفتهم الظبا الظامية . ولاينهض قويهم من الكلول ولايفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت من اسوارها . وأزدحم العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي الواغل . أن القوم مستقلون للموت مستقبلون . وأنه لاطاقة له بمقاومتهم . ولاقوام له بطاقتهم . وأنهم لايسلمون وهم يسلمون ولايبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا . وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولامرد لما فيه الله من المراد . ولامدفع لحكمه في البلاد والعباد . وأن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما غاب المعين . وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الديجور فلابد أن يسفر عن الصبح الدجى . ولايشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم السرى .

فصل من كتاب
الى قطب بن نور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه . وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه . فالاسلام ينشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمته من ابن ذوره ذوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد الرد عنها مكايد العداة في نحرها . قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مغصوبة بعد ان كانت عارية من الكفر مردودة . واذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهماله . وأخيذة إغفاله . وحاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا . ومابقي للفرنج مع استيلائها على الموضع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل دينه بالنصر . والمردي بمكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هو زمان استنجاح المنى . فان العدو الخادر قد آن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من إربل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العدو الكافر . والطاغية الحاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من للكفر في البلاد والجزائر . وماقصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنج ممن بعدكا ومنا بين الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخرناه وعطلناه . وكلما ركبوا برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه . وكلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولا لكيدهم مجال ، ولم يتسق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين الف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهم بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون ، فاذا هم في نهج القتال سالكون ، وهم حطب نار الحرب . وطعم الطعن والضرب . وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة . وحصلوا تحت العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدرة ، ولما دخلت هذه السنة اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد . وقلنا هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ماكان في وسعهم من الاجتهاد . ورأينا أن نجدد للبلد البدل . وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه أكثر من عشرة الاف رجل ، ومن كل ذمر مشيح وكمي بطل . فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بذلك الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبه . وحمى جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه ومافيه كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع لهام ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام . وباس واقدام . وناس واقوام . وحشد ملأت به سفنها، وأخلت منه مدتها . ووصل ملكا افرنسيس واذكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما ورجلهما . واناخا بكلاكل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما وجهلهما . ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد . واهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والذلم . وخرج من ذقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان ذقابي الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الذلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبون كابتون ، قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراخاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام . وتلقوا من وقع بيضها بحمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم ، وهم يواقعون ويواقحون . ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله ، فخانهم بعض الأمراء الجبناء . وأخذ للحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى البلاء . وحسب النجاة في النجاء ، وهرب في بركوس قد اعده لذلك اليوم . وأثر على جراح السيف جراح السب واللوم ، واستصحب أمثاله . واستتبع وأبعد في فراره وأبدع ، وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأمطى أفاعي الكفر في نهش الراقين . على أن الأصحاب ما آنذوا بالأصحاب . ولم يقابلوا الضراب بالأضراب . ومازالوا يواصلون بالقواطع ، ولايرتاعون للروائع ، ولايريمون مقام المقامع . ويطالبون من الأرواح بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعة فظيعة . كل منة لها غير مستطيعة . ولولا ماتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم تكن عكا بالممكنة للعدو ولاالمذعنة . وأن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب . وان ملكت واحتلت فما اختل الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السلك ، وانما نبه الله بها العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . وذوسعهم الردى في مضايقهم ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . وذكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما برز الا من واراه من بطون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لايريمون مخيمهم . ولايرومون ان يهجروا مجثمهم ، ومااأنسوا بمرابض المضارب . الا لنفرتهم من مضارب القواضب ، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصاف ، وآونة بالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعترضهم اين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمذون له بارزة . والعزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي وينتمي ويصل بجمعه اللهام الملتهم . وبجمره المحتد المحتدم . وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السابك في نار الوغى سبائك الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لاشك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ماصرف الله قلمي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وترحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمي وكلمي . وعرف شيم مخايل ألطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمري .

وماأجراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شأنه . وماضيع احسانه . وهو للفقه والفتيا . ومصالح الدين في الدنيا . وماعرف الا بعرف . فما صرف الا عن صرف . وما سفارته الا في نجح . وماا سفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة وامينها . ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد امدادها . وبسداده للثغور سدادها . ودواته دواء المعضلات . وبعقده حل المشكلات . وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطة قط هوادي القطوب . وببريه برء الامراض . وبجريه جري الجياد للجهاد . وبسعيه سعي الامجاد للانجاد ، وبحركته سكون الدهماء . وببركته ركون الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه . وعون من لايعينه . فخفت على عكا من وقوف قلمي عنها . وكان قد الهمني الله فانه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة . والعارفة الطريفه .

ذكر ماجرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها العسكر . فضرب الكوس السلطاني . فثار المعشر وقام المحشر وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طار غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارسها ركابها . وتعير الشمس من نسج حافرها نقابها . في غلب كالقواضب .يروون القواصب . وطوالع من الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حماة الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق وانهزم الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت عليهم مذونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعللا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم . ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة . كادت تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتوا ثم وثبوا . واسعروا نار الحديد والهبوا . ونظموهم بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت سيوفهم بالاعناق والطلى . وحلت من حياة العدا الحبا . ودخل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بإثارة عثيرهم وآثار عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصاف . واخذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة . لخلاص الجماعة المستأسرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صار الى صوره ورتب الدوك نائبه وولاه الأمور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعد ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه ورضي بتدبيره وترتيبه . فانهض اليه السلطان وراءه رسولا بتحف تليق به . يستخرج ضمائره فيما هو من اربه . ونقل خيمته يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التل الذي كان عليه نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلى الذي اخلاه عاطلا . ومازالت الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبدد . حتى احضر مائة الف دينار والاسارى المطلوبين وصليب الصلبوت . ليوصل ذلك كله الى الافرنج في الاجل المضروب والوقت الموقوت . ووقع الخلف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان اسلمه اليكم على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سبيل الرهن قوما معينين . فابوا الا اخذ الجميع . في الزمان السريع . والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهم . فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهم ظن السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان فيه على الاسلام غبن عظيم . وعار الى الابد مقيم . فلو أيقنا خلاص أصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في الحال ، بصليب الصلبوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهي الترم الاول . وجاء الرسل وابصروا الأسارى حضورا . والمال موزونا موفورا . وظنوا ان صليب الصلبوت قد ارسل الى دار الخلافة فليس له وجود . فسألوا احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقروا به شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخلاص اسارانا مرهون . وظهرت علامات مكرهم . ولاحت امارات غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخرج الفرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكتير الى خيمته . ومعه خلق من خيالته ورجالته .

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخونين بعكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجب ركبت الفرنجية بأسرها وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجحفلها وحفلها . وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية ودل كيسان . ونفذ اليزك وأخبر السلطان . وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة . وشامت صوارم صادفة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا اسارى المسلمين . وفي الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلوهم بأجمعهم . والقوهم على مصرعهم . فحمل عليهم العسكر وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسع فيهم خرقا واستشهد منا كردي حميدي وبدوي . وكلاهما من الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلما انصرف العدو الى خيامه ، وركد الروع بخار قتامه . شوهد المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسوا من حلل الجنان التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم . ووصفوا في سبيل الله مواقفهم . وما اكرمهم رجالا . واحسنهم في الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر الوفاء . تصرف السلطان في ذلك المال . وبسط فيه يد النوال . واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربابها . وترجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد للحاجة اليهم . فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصلبوت الى الخزانة . لا للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد . والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا . واندفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا ولاصادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل للسلطان . ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبابه . واجتمع بنابيه لاجالة قداح الرأي أصحابه . وسح سحابه وصح حسابه . وحكم فأحكم . ويري فايرم . واستشار وأشار . واستثار وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كمونه. وغرته عكا فطمع في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته باديه . وثوراته عاديه . وذكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه . واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى مواجهته . واغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته . والان الان الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى السعه . وابرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب . فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتئيا . ويقصد الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق اما اجام وغياض غلقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكئبه . وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعته

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بن جندر . وامير من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها من المخارج والمدالج . وكشف المواضع التي يلقى فيها العدو . ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا ينقضان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . ونتخذها لمبار المرام مبارك . ولمدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على اماكن ومكامن . ومواطىء ومواطن . ووقع الاجماع على الاجماع على اللقاء والقراع . في مذاهب تعينت . ومسارب تبينت . وسهول عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفرنج اذا ساروا سرنا على عراضهم واستقمنا على جدد الجد في اعترائهم واعتراضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران . واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطة بالصهيل . والارض مضطربه والسماء محتجبه . والقباب تقوض . والعياب تنفض . والجعاب تنثل . والهضاب تنتقل والذئاب تعسل . والزغف تفاض ،(٥٨) والحتف يخاض . والخيل تسرح . والسيل يمرج . وذوائب الذوابل تنتشر . وانبات الذوائب تكشر . ولواء اللاواء يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تختفق . والبوارق تأتلق . والدودو . والجوجو . والحديد تبوج والعديد تموج . وقد ثارت الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجت الضوضاء . وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السلطان تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فرعدت كوساته . وغردت بوقاته . وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت ذيوله . واصطحبت خيوله . وبرقت لوامعه . واشرفت طوالعه . ومضت عزائمه . وومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مطار مطارده . وتألقت الخرصان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردالضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوابح يموج على شكائمها اللعاب . وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب . مشتعل القواضب . وقب معقودة السبائب . مقودة الجنائب . معصوبة الهوادي هاديه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب ملوثة البرود بالقضب . وترك كالاقمار في هالات التروك . ومماليك في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق قد خلقوا للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العراب . هضاب على هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقباب اليلب مستعصمين . في مسرودة الحلق . مسدودة الحدق . تقهقر عنها اللهاذم . وتقهقه اذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو ولايصاب . ويعيب الاقران ولايعاب . من كل ناصر للحق على ضامر للسبق . خارق للدقع راقع للخرق . فاتق رائق للفتق . معنق الى الضرب ضارب للعنق . وفيلق همه فلق الهام . وجحفل ملتهم للجحفل اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رحب الباع . خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواخر . فزرات القساور . وأزهرت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير . وأشبه سهك الماذي بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم المحفل . فوقف لهم وقفا أثرهم وألهبهم بنيران النصال . وأسعرهم . وقطع طريقهم . وقصد تفريقهم . وسطا على أوساطهم ، ونادى بايراء زناد إيراطهم فانقطعت أواخرهم عن أوائلهم وسدد سهام المذون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الأجل . وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل ، وأوقد نارا على اهلها مشعلة . وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله . ونفذ الى والده يستنجده . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا . ومتى تتفق مثل هذه الفرصة لو ارى لي

مساعدا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل السلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وأبطأوا عن الاصراخ . فآذن روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عاديا بحماته . فحمى بمدده امداده .

والملك الأفضل قد بذل وسعه . واوضح في الجد بشرعه . وقتل من وصـــــــــــــــــــــــــــــــــــلت اليه يده ولقد كان يضعف عدد الاعداء او تضاعف عدده . وبقي يتلهف على ما فاته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقد انهاض بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح في النصر . ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خواص الامراء والمماك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك . واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم مدد . لم يبق من الأعداء أحد. ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخاف فيها من العدو الغاره . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره . ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان المشورة بحضور أوليائه وأمرائه . الأماجد الأجاود . والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم . ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى الملاحة وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالحوم . وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل يابالية

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بارض الا احيا ماحلا . ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاستراحة . واقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحة رممهم . واخبره بعض الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهلكت بين عكا وحيفا اربعمائة فرس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو انكم كبستم كسبتم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن حتفه بظلفه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم الى البوار . ووافد اهل النار الى النار . ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا في عراضهم لاعتراضهم . وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم قطعوا ساقه العدو عن اللحاق بمقدمته • وفلوا عن الحدة في الحركة حد عزمته • وقتلوا خيلا وخيالة • وفوارس ورجاله • وقدروا وتمكنوا • وجرحوا فاثخنوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا قطعوها • ووقذوا نفوسا قلعوها . وغنموا اقمشة وأسلحة •

وحصدوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في فلهم السيف . فأقاموا إلى هذه الغاية لمداواة جريحهم ومواراة طريحهم • وإراحة طليحهم • وإثارة ماركد من ريحهم • وقد رحلنا وسبقناهم الى طريقهم • عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم • فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة • ولأعدائنا من عبطة • الا ونبادر ببشراه الى المجلس لتقوى في نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في مواقفنا شيمته وتروض مواحل الامال مع اوان الديمة الربيعية ديمته ، ويغلو في سوق رواجه من الدين ماظن أنه رخصت قيمته-وكيف لايأخذ ذلك الكريم بثار الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، واذا تأمل عرف أن الخطب عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعد المقيم وسيقتضي دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء من اخبر برحيل الفرنج السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحة الجرد طائرون وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهم في جمع لهام . وقد انقسموا ثلاثة أقسام كل قسم راجله بخيله محفوظ . وبأعين القسمين الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقدم من الليل بركوب الخيل . فركب في كل خواض للغمرات . فياض بالعزمات ، رواض للجامحات نهاض بالجانحات ملتئم مع اللئم بالذقع والدجى ، ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم بجمرة الظبا ، على نزائع يذقلن الردى على صهواتها وصواهل يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظلام بجهاتها . وبارين الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلائها ، وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المذون على سابق ، وكل تائق

إلى المازق مازق ٠ وكل طائر في الغبار على سابح ٠ وكل غابق بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطيه إلى الرقاب ، وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه ، ونجتري عليه ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي ٠ وتصمم وتصمي ، وطيور السهام تقصد من الاحداق اوكارها ٠ والأوتار تنشد بالارنان اوتارها ٠ وهم في لباس حديد سد على السهام المنافذ ٠ واشتك الذشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياهها غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحدودها . فحلأناهم عنها . وأبعدناهم منها . وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا الى الفضاء . فيدخلوا من تمكننا منهم تحت القضاء . لكنهم ارتابوا وارتاعوا . وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فانحرفوا الى الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سارين . وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزهم ونهزمهم ونحفزهم ونحزهم . حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتذلمت الصفاح . وتحطمت الرماح . واجرت الأنهار الجراح . وجرى بالأرواح السماح . وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا يرجون . وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم في مسيرهم الذوازل نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطاعن الضارب . الباسل السالب . الغضنفر الهرماس . الفارس الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدم اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسمع متنصت . ولعطاس الذقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلفت . ولسيف الاقدام ارشق مصلت . لايروعة الروع اذا حفزته عزمته . ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصفين على صافنه . ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه الى مقاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه . فما برز اليه الا من برزت اليه مذونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف للكفر كفها . وبكر للنصر زفها . واذف للشرك جدعه . وذي اذف للفتك صرعه . ولبه للغضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلبة للمتقشمر طنت فيها انيه صفاحه . واجفان للاقران ذبتت فيها أهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل ما أجل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه خانه.وما صانه.فعثر به في حالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لذل الحديد للقيام

وطعن وضرب وأتاه من الكوثر سلسبيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب ألفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الاحياء في سبيل الله لا الأموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في اسفله ، وتقاربت مابيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة ، ولما اصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتظر مايكون من خبر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحاتهم ، وكذلك ماملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم في ساقة اليزك ، مستيقظا للحفظ والدرك ، فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، كبوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شدة ، واسر ثلاثة ، قبل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاحداق به من أمامه ووراثه وأقام يوم الأربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الأول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان في اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتموهم واصطلحتم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : مالذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسلك الأسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكالمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هذفري بن هذفري ، فلما سمع ملك الانكتير ماراعه ، ما استطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ماجرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الأصحاب ، واستحضر من أسد غابة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيل الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما اسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غير وان ، وأفعوان معتقل افعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على أدهم ، فأحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، ونقلت بذسور ضوامرها الأرض الى السماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . التترك على الأكاديش ، وأحدقت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت بيضها لمعانقة الأعناق ، ولمع شرار النصال في دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج ، فان الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعانقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب ، وقربوا من ارسوف ، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف ، وضاق خناقهم ، وحاق بهم ارهاقهم ، ونشبت الجاليشية فيهم بالذشاب ، وشبت نيران المرهفة في أولئك الأوشاب ، فاحتملوا في جلودهم الجرح ، ومن اجلادهم الطرح ، ووجدوا الموت الغالي مسترخصا ، وايقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا ، وعرفوا ان البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق ما لقوه من الذكاية غير محتملة ، فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلئها شوارع القنطاريات عن مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت من وجوه النصر بالصفور ، واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرماح اشرعوا ، ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة اردتهم وردتهم ، وصدفتهم عن الاستنان في جدد تلك الحملة وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس ، وفرشت بالعراء لهم أشلاء ، واثخنوهم طعانا ورماءا . فنزلوا في ارسوف وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اسد العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع . وثبت عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمي في موضعه الأول ، وكانت العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشبة ، فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبر ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء ، واقام العدو يوم الأحد في موضعه ، منكوبا بتعب تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بها ورطه ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالذوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا.

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكا

وسلكوا في مواضع ماليزك عليهم فيها سبيل. ولا لقداح القراع في مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومن المورد الى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة مابين المنهلين ، واذا لزوا لم يبعدوا بين المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه ، وفي كل مرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازله ، وأوردناهم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم الحمام في كل سبيل ، وسار صباحهم منا في كل مغدي ومقيل ، وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال ، وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهقنا حدود العزائم والصوارم وارهقناهم ،وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور . ودائرة السوء على اهله بنا تدير ، وماء اهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخر موعده في نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم ، فمنها يوم رحيلهم عن عكا ارهقتهم اليزكية الزكيه ، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنيه ، وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك .فتولى اسعار لهب المعترك .ووقف لهم في المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن اولهم. وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك ، وفتك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعور عن السهول . ولم يبق اليهم

نهج للوصول ، وأقام الفرنج في تلك المنزلة اياما ، وقد نالت معاطسهم ارغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، وأحكموا التدبير ، واستأنفوا المسير ، ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولمن تزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فاذا لزوا بالمنازلة ، ارتزوا الى المنزلة ، ولاذوا وهم اهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعاديهم شاكين في منهتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم النشاب واعجزهم وازعجهم وأحرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم ، كابروا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الأطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعدوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طالبه ، وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية ، والأنف والأبية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في النوبة من الذبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمه من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلفه وتلافى ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا ، حتى باسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها ورابطهم بالأسود في عرينها ، وأسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرمله ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحله ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امر ان الخيام به تبنى ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الأمر .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الأمراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلدين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل ذخائره ، من كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنبا متجبنا. وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فندخلها اتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض اسوارها ، وغض ازوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذ يوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خلل ، ولا الى يدها شلل ، ولا الى حدها فلل ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفتها واستحسنها واستلطفها ، ورأيت سورها قبل فصم سواره . ونورها قبل نيول نواره ، فما رأيت احسن منها ولا احصن . ولا احكم من مكانها ولا امكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاوطار والاوطان . وساءت اسواؤها . ونأت اذواؤها . واناخت لاواؤها . وباخت اضواؤها . وسمع غناء المعاول في مغانيها المعوله . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة . وناحت تلك النواحي . ومسحتها المساحي . وجرفتها المجارف . واخافتها المخاوف . وذكرتها المعارف . وبهرجتها الصيارف . ونعتها النواعب . ونابتها النوائب . ونزلتها النوازال . وغالتها الغوائل . وسفتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها من التلاوة . وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوه . وصوحت مجاني مبانيها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معاليها . وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طلولها واستوقفت . وأسيت عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقد حسرت وحفيت . ومحي سنا محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع . وأهديت لسقياها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من سكانها . وتخلف بالبيوت رماد نيراتها . رحل السلطان يوم الثلاثاء ثاني شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعذر ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله . وتفضيل جميله باد على التفصيل والجمله . وامر بتخريب حصنها وتخريب لد . وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتاه يوم الخميس . واعاد اليه رسم التأنيس . وخرج منه يوم الاثنين ثامن شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبة . وقد نال بما رتبه من مصالح القدس المثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقد اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئا من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقاه الملك العادل . وجاءت منه الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بها جدة . وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضافرة . فانه تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خيالته متذكرا . ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقذ . والطعن في لبته يذفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به واسره . وافلت اللعين وأخفى أثره . وقتل واسر من خيالته جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون . وهي قلعة منيعة معجبة الظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وفل غربها وثلمها . واشاع بها الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع . ولا شتا ولاصاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف . وتحلحلت به الصفوف . وتمخضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . وامل النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدها الجهاد . وانضاها الطراد . وفرى جلودها الجلاد . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنفر من رنة الحنيه . وأنة المبرية . كأن عندها للاوتار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار . وتجاريها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من الذفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما الذشاب فانه قد فني . بعد ان اتخد من اخشابه جميع ماوجد واقتني . وقد عدمت اشجاره في منابتها . واعوزت اخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائن . وانفضت منه ومن كل ماينخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومايجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشون . وينصلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعها العمال . وحسبها ان نصولها اعدمت من حديدها المعادن . وخلت من نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هذا الفرض وحده . مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . وماا ستمر على مساعدته . وموازرته ومعاقدته . الا صاحب الموصل وسنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد ماجار . فهو يحضر تاره بنفسه وأونة بولده . ويستمر من جد الموازرة على جدده . ويواظب بعدده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد لملك الانكتير من المراسلة والرغبة في المواصله

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاه . والمواتاة في الموافاه . ومولاة الاستمرار على الموالاة . والاخذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظاهره . بالمصاهره . وتردت

الرسل اياما . وقصد التئاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير . وان يعول عليها من الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري فيها الامر على السداد . وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولايمكنهم من الحصون التي في الذرا . ولايقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد . وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا: تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها مافي وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب. وما اخر الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الغرض وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل امر الوصلة . واراحة الجملة.وازاحة العلة . واعتقدنا ان هذا امر قد تم . ونشر انضم . وصلاح عم وصلح أذم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع ينقضي بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع النشر . وذاع السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجبهوها بالعذل واللذع . ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئننا بافجع ملم مؤلم . وتسلمين بضعك لباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما تعسر . وان ابى ابيناه . وان اتى اتيناه . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ماطلبت . وسلت بعد ماسألت . ونزت بعد مانزلت . وكرهت وكانت شرهت . وكانت اكتحلت فودت انها مرهت ، فأرسلت الى الرسول واقبلت عليه القبول . ثم تصلبت في القسم بالصليب . انها مجيبة الى التقرير والتقريب . وانها مسارعة الى التكمين . لكن بشرط الموافقة في الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتظام العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير. وصغير بصغير . وبشر اولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير . وعطل التقدير . وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان من الليل خلع الاكابر حتى سارت اليهم بكره . واحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بساط نشاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه بتقريبه وتمكينه . ويليه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصل . ولسمو منزلته دنو المنزل . وعلاء الدين ابن اتابك الموصل عن يساره . وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بايثاره . ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلته منافس . ثم تفرق الناس باندس جامع . وعرف شائع . وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرمله ليقرب من العدو ومواقعته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في ذلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقد اركب العسكر

القتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حالي الجملة . خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا عليهم . وقربوا من خيامهم . وأخذوا عليهم من ورائهم وامامهم . وناشبوهم بالذشاب . وكاثروهم بالأوباش والأوشاب . فركب الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايديهم . فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة . وكانت مساعاتهم الى السعادة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان مايخلو من وقعه . ولابد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وامنوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم اعراب على عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحاب . فركبت اليها من الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت العرب امامها . وحققت انهزامها . وماقدرت على قصدموضع الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانين دون العرين . فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن وردهم . وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم اياز المهراني وجاولي الغيدي وصارو . وسروا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسان معروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخيل تقاد اليه . والأسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس . وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقه اظهراها ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف بالصنيعة ليتفقد الأساري الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المركيس . وانه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى المركيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكلما ابرم عهدا نقضه ونكثه . وكلما قوم امرا عكسه وعلثه . وكلما قال قولا رجع عنه . وكلما استودع سرا لم يصنه . وكلما قلنا يفي خان ، واذا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحد سابع عشر عاد السلطان الى المخيم بالنطرون . وأقام على الثبات والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

ارسلان صاحب ملطيه مودعا وركب السلطان وسار معه مشيعا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصداق مائة الف دينار . ومضى وقد حصل على نخائر من استبشار وافتخار . واستبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذي القعدة وتقدموا الى الرملة ونزلوا بها . وخيموا في اقطارها وسهوبها . ولم نشك في انهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . وأقام السلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منها زوايا ، ولنا في كل يوم وقعة شديدة وفتكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالت الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحلت الأوعار . فعزم على الرحيل ، وامر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهاد الى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبل العصر . وقد نشر للسلطان لواء النصر . ونزل بدار الاقساء المجاورة لكنيسة قمامه . ونوى بها الاقامة . وشرع في تحصين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجة في قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وآنن ذلك بتزاحم الافكار وتراجم

الظنون وتزايل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة . تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصبحوا الا حصنهم المجنوبة . فوقعوا على سرية للفرنج فاستأصلوها . واسروها وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعمى كريمه . وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيرز . ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة . وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنة على الحسنة غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص . وصلى الناس في القبة العيد حواليها العراص ، ثم انصرف السلطان وقد بر عمله . ودر امله ، ووفر اجره . واسفر فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم وامولا . وساقا خيلا وبغالا . وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين . وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم الحروب . وزادت الكروب وضاقت عليهم الارض . واستولى على

عقود عزائمهم النقض ، ورأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا . ورحلوا الى الرملة عائدين . وبالسهول من الحزون عائدين ، فان الثلوج دامت على اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم الذوازل في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضح في النصر من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في الصخر . وقد سفرهم بنفقة . وجعلهم من الاحسان على ثقة . واصحبهم بعض حجابه . وناداهم بندى سحابة . وسير مع المندوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهدهم في كل يوم بتفقد بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سوروثيق وأحضر من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب . بناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبه للقدس المعمور . كان آمنا من قصد العدو المدحور . وفي عصمة الله من المخوف المحذور.وقسم بناء السور في مواضعة على اولاده واخيه الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه . ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

بذفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلماني واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعي . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستنجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيوش المترادفة المترافدة . والجنود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهاطلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الأرواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستوحشا من ابطائه . متعطشا الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضى الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماردين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوذ على جميع مابها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في ديار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدأ به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر . وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبته ، وهبت روعته . ودبت الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره . وارتجت تلك الآجام من زأره . وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد ببلائه . وهابت الأعداء هبة اعدائه . وزلت الأقدام لاقدامه ، وانخفضت الاعلام لاعلاء اعلامه . نفي عدله من جبل جور جبلة الجور ، وأنهب بنهابه اليها فوران الفتنة على الفور ، ودخل قلب قلب ، وحكم في عداتها الغلب القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق بانن الشنف شنفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمته أمته ، ومأارجأ له نجح رجائه رجاله ، ومأابطأ له عن اعانته أبطاله ، وأجناه ثمر الطاعة أجنانه ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجاده ، وجر عسكرا مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بترا ، وصواهل ضمرا ، وانهض كمته وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، وذسوره وبغاثه ، وسمانه وغثاثه ، ومتانه ورثاثه ، وشباعه وغراثة ، وجاء في سواد اسود منه الجو ، واذسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر وتصعد ، وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الأعلام بالأعلام ، وأذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديها قد ملأت الوهاد ، وأدنى الى الآساد الآساد ، وأغرى بالجلاد الأجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع المراح رماحه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران دروعه ، وهاجت غران جموعه ، ومالت المران ، وجالت الأقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعرت السهول ، وانقض القضاء،وانفض الفضاء،واشتكت الأرض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها الى السماء نقعا ، وحثت في وجه الفلك ترابا ، وحثت الأتراب الأتراب طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خادره ، وانتشار بوادره • وانتهاض قوادمه ، وارتكاض صلادمه ، وانقضاض شهب قواضبه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطف بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب ، وفض على الفضاء سحاب الصحاب ، وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعلوه على العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل لحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الأقران القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المذون ، وكل شجاع اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع، وكل طائر بأجنحه السوابق ، زائر بأسلحه البوائق ، محلق بخوافي الخوانق ، مطرق لطوارىء الطوارق ، وكل ذمر مشيح بالذمار شحيح ، وكل قاس قوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف، وكل صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق ، وأيد رجاء الرجال بأياديه ، وقوى عزائم أوليائه لأضعاف أعاديه ، ورغب بالرغائب واملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشتمل ابيض يكشف ظلم الحروب ، وكل من يخال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ،وكل من ينال اعتزاز الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصل بها اذا فارقت اغمادها المرافق ، وكل من عنانه في يمين الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل من ذبال سمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب ، ووجوه صوارمه تبكي وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتدمي ، وكل اشعث الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيظمي • أباء حمي • مجرب محرب • مقرب على مقرب • مظهر على

مطهم • جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حليم تحمد في الوغى جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صهلاته ، وكل بحر مستلئم بغدير ، وكل من عنده اذا لبس الحديد انه لابس حرير ، فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط وذلوا استدرك الغلط ، وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش ، وولى هزيما ، ولوى هشيما ، وأغنم العسكر التقوي سلاحه وخيله ، وجر على تراب الذلة نيله ، وظفر الملك المظفر بالملك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا واصحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح مقفلها. وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومن حياته يؤوسا فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثم راح الى ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق وحشد اليها الأمداد ، واروى فيها من عزائمه الزناد ، وجاءته عساكر أرزن الروم منجدة من جده ، موجدة لما لها من موجدة ، تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق ، وكأنها في الأهبة والأبهة من ملوك سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجنود، ووافقته السعود ، وخافته في غاباتها الأسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت ، واستدنته الممالك القاصية ، وأطاعته المقاصد العاصية ، وتشنفت له مسامع الأقطار بافراط السمع والطاعة ، وعم الأمحال تلك المحال ففض بما افاضه من فواضله مجاعة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفي وغشي وامتلأت الطرق بالوفود والجنود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينا هو في غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة من الغير ، وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجاني وزيادة الأمل ، عن زيارة الأجل ونزل المنى عن نوازل المذون ، وسكن الأتراب عن التراب المسكون ظهر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقرض

عهده وانقضى ، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده بإظهار شعاره قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جدده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مامنه فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الأمر على ايثاره. وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوقى مساعد ، فياله من حسام أغمد ، وهمام ألحد ، وركن وهن.وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصبح كسف.وبدر خسف.لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل امه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق في الكرماء ماذكره ، وذكر في المكارم سيفه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لجني النصر مشهورة ، فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وفله ، ومازال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

الثرى بحق خلقه معه فاسترهنه، وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه ، الى السماء فاعتقلته ، ووجدته في اوج الفلك في النيرات فنقلته ، وماكان اذكاه واذكاه ، واصحه واصحاه ،وابهجه وابهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شفيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصيب بعد ماأصاب.وجواد بلا حساب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسلطان الى الأنس به مستنيما ، فعرض له مرض استأذن لأجله في العود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ماطلب ، وتوجه من القدس سادس عشر ذي الحجة ، واستقام على المحجة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قرية غباغب ، وستر التراب منه المناقب ، ووصل الخبر بوفاته الينا يوم الخميس ثامن عشري الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصلحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغرل بن ارسلان تحت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنه ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأنف السلطان من كونه تحت حجره ، وبحكم نهيه وأمره ، فانه لم يكن له صاحب ولاغلام الا من عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه من الخيل ، ودام غائبا في نواحي دامغان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل به عدة من مماليك

بهلوان الخواص ، وسلكوا معه نهج الاخلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في سلكه ، وقويت يده . وتأيدت قوته . واجتمعت كلمته . وتكلمت في الأمر والنهي جماعته ، ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء ومماليك بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام من مكرهم بنقض . وقالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهم قبل أن يبطشوا . وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتبع محالهم . وقتلهم بحضرته وهم غارون . وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون . فذفر منهم كل آنس . وحفظ نفسه من كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بذو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم . ولقوه بتأبهم . وقصده قزل أرسلان فأزعجه . وأخرجه من دار ملكه وأحرجه . وأجلس سلطانا آخر موضعه . وكدر عليه بالشوائب والذوائب مشرعه . وخطب لعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضاه بالاسم . وأجراه على الرسم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همذان من قزل ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قربه بعد . واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشتد في النهب لشدة النهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبث العدوان . وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه . ولخاطر لم يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصول إلى الامير حسن بن قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وآزره وضافره . وظاهره بعد أن صاهره . وزوج أخته منه . وحمى جانبه وذب عنه . وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتى يصالحه . ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا . واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان . وعادت الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همذان . فمضى وراءه قزل ارسلان . فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبسه في بعض القلاع • وأبعد عينه وأثره عن الابصار والاسماع • فاتسقت له المملكة • واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخربت • وقتل في ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف وزحوف . وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية • ووقووا أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمام قوته والامكان • فلما اعتقل طغرل • واستمر أمر قزل • مضى إلى أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في المحال • وأجرى عليهم القتل والاغتيال • ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي . ونال ما هوي . ونشر من أمره ما كان طوي . وجلس على سرير الملك وضرب النوب الخمس . ووجد بعدم من يوحشه الانس . ولها ولعب . وشرب وطرب . وغفل عن القضاء المشتبه . ونام عن القدر المنتبه . واغتر بالعيش الرفه . وحلم عن الخطب السفه . وبات في قصره . وقد غاب في سكره . وهو بين خدمه . وحشمه . وعسسه ، وحرسه . وعتقائه وأرقائه ، ومستخصية ، ومستخلصية ، فوجد على فراشه وهو قتيل ، ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل ، فنسب قتله إلى الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى ، والله أعلم بما به حكمه أجرى ، ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون أربابه ، وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه ، وجمع له ملكه ومتعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر إلى اذربيجان وأرانيه سائقا إليها واستولى عليها . وأما السلطان فانه أيس منه . وسلا من كان يواليه عنه . فتعصبت له أمراة متولي القلعة ودبرت في خلاصة . وهونت على زوجها أمر استصعابه واعتياصه . واستعانت بمن أعانها . وأعلت بإعلاء شأنه شانها . ولما برز دخل مدينة تبريز . وكانما الكير أخرج الابريز • ثم جمع ومضى على سمت همذان • فلقي قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان • فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا • وفي حلبة المكارم جريا • ومن الخيانة في ولايته بريا • ومن العار عريا • ولم يزل زند مضائه وريا • وكانت له سياسة ورياسه • ونفس ونفاسه • ورأي وفراسه • وفطنة وكياسه . ومروة وفتوة . وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمالها حتى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الان ما باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعاش غنيا . ومات جشريا . وورث السلطان بعض ماله . وذلك ما فضل عن افضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفا ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشان ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طيه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة ، ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه ، ولجده انتباه ، ولمداواته بالشفاء شفاه ، حتى حان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكرها واشكرها . وعارفة اعرفها ولا أنكرها . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهري العرض ، وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الالم ، فتقسم فكره من خبر السقم ، وركب ووصل في يومه حتى ادركني ، ومرضني وما تركني وداواني حتى

ابلت ، وازال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه واحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا واعطاه في بنائها الوفاء.فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حموية وهو شيخ الشيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق دخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الأنواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء.وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من أحسن المدن واحصنها واحكمها واوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الأجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

والمؤمنين المعدين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلكله . وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمه ، مقام الأنبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين . ومـوضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الأشراق الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الأوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والأداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الأمر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح،فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده ، وهذه لا شك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدات ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العدات ، وللعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب . وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لاتفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

- ٦١٧٦ -

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مذ يسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع لليل النصر صبحه ، الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه . وصعاب اعماله وشعاب احواله بنصرة آرائه ونصرة الائه مروضه ، وقد استناب فيه اخاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا الى ان استشهد في شعبان سنة خمس وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى عليين . فأبقى السلطان ذوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان الأمير سياروخ بالقدس مقيما . والنظر في مصالحه مستديما . ويضم من امره مايراه مذشورا ، وكتبت له في التاريخ المذكور باستقلاله مذشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الأقصى من داناه من الكفر ودنسه ، ونزه البيت المقدس من رجس اعدائه المشركين بأيدي اوليائه الموحدين وطهره وقدسه ، وانطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه،ومهد الشرع واسسه .وبطل الكفر وعطله . وارغم الشرك واتعسه ، وعلى آله واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصفى مورده ، وازكى مغرسه ، وبعد فانا مذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامن ايامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الأفضل الأكرم الانفس ، مانزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن آثاره وايثاره حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي ما انخفض من منار الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيي به من رسوم الايمان

ونجدد من معالمه ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد اختبرنا الأمير حسام الدين فألفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه باعباء الأمانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا ماحضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس واعمالها ، وعذقنا برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من اناس اننى الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم . وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل ما يحله ويعقده . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجناده ، فشرعوا في انشاء سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصح ، مشمس مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره . لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما تغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمر احسانة واحسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فضن جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلداً لايتأتى قطعة . ولايتهيأ بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلمود ، وصفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرح جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثني ، وكلسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاقا يعقد ، ورواقا يمهد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تقعر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل مافي الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأنفه من عمله . ويحلي بالفضل مايبدو له من عطله ، وكان ذلك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال ينفقه نخر باق . وانه إن فاق كريم فبإنفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله واستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لمسلم فزع . ولا فيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيره . وقهقر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي اقدر السلطان على ماعجز عنه الملوك.وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض اعمالها ، مجدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند ابليس ، فشاهد دخانا على البعد ، وماعرف ماعنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكبسة وقد بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثر الفرنج عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ، والفرنج تباريهم ، وساقوا اثقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على الاقدام اقدامهم . ومافقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه . واستوى في نهجه . والناس يتقلون معه على خيولهم .

في قفافهم وذبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربهـا ولده الملك الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه مـن الامـراء . فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسـطه على ذلك البساط . وكنت قد مضيت فردني . وبتقريبه امـدني . فلمـا فـرغ وفرغنا . وبلغ مراده وبلغنا . صـلى هناك الظهـر وركب عائدا الى داره . آيبا بـايثاره وحسـن آثـاره . فـائزا بسرور اسراره وخير اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجـرد في سرية سرية . بـارية رقـاب ذوي الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم على يبنى . وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثنى عشر اسيرا . وخيلا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جرديك . وعسكر القدس وجماعة من المماليك . على ظـاهر عسـقلان . واوفـدت بتناصرها على الكفر الخـذلان . وغنمـت ثـلاثين اسـيرا قيدت في الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت على يبنى وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطـريق وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبـرت . فـكبست وكسـبت . وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمـالها واثقالها . ثم اغارت على يافـا فقتلت وفتـكت . وسـفكت دمـاء وهتكت ، وعادت بـالغنيمة والسـبايا ، واسـتغنت بذقـودها عن

الذسايا . وعجز جماعة من الاسارى عن المشى فضربت اعناقهم ، واوجب ذلك للباقين في المسير اعناقهم ، وعادت سالمة سالبه ، غانمة غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين . واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى باياالته لها احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثلث نابلس واعمالها لمصالح البيت المقدس . وتشييد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على ولده . وتركه في تصرفه وبيده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي السرى قوي الازر . فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ، وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفى رزقه لوافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان . بل ذئبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند ذلك الدكاكين . وهرب احدهما ودخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه للحين . وزاده جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرفيقين ، فالفوهما من الفدائية الاسماعيلية مرتدين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكتير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، ودخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهما اسباب التأنيس ، ثم علقا بركابه ، وفتكا به ، فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فياله من كافرين سفكا دم كافر . وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم منكبا مذكسا . تحكم ملك الانكيتر في صور . وولاها الكندهري وعذق به الامور . ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى أنه احق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها. وذلك افظع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من ينسب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه.ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه ، وننزع ما اخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلاله باسفار الصبح ، فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه ، وذهب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشرى شره ، وكان قد تعصب لمضادة المركيس للملك العتيق . فاظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عاديته . ولايأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جذونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها لمتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقي في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وابقيت . وبالميره والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسلمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها . وداروا حولها واشرفوا عليها . وأنفق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . دقضهم وقضيضهم . وسعرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم وذابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرقوه . وحشوه واحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعرقبها . والى الذخائر فاضرمها والهبها . وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عدة يسيرة . وكانت هذه الذوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغي . وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر . وقد انسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر . ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب . فخرجت عليهم اسد اليزكية المكمنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا شديدا . وتركتهم بحد الحديد بديدا . وغادرت حبل قصدهم الجديد جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم ترديدا ، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا مفلولين مذلومين . مخذولين مهزومين . مذلولين مهضومين . ثم رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين. وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين . فتقدم السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهم مبارين . وفي يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية ، بجموعهم الوافرة الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون . فأرجفت الالسنة بانهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهم البلايا . واظهر السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ، وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد . وذوي القوة والاستعداد . وامرهم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب . وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم . ويعسفونهم ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسناهم دفعة بعد دفعة ، ومن ذلك ان بدر الدين دلدرم كان في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين. فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم في خيامهم ، والهبوهم بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبت اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحز اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة لاهل القدس على الكفر واهله ، فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار ، وللعدو لقدومهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه الأخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكتير ركب في سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل ، ولايدري اي جانب قصد ، ولأي نائب رصد ، وجرد السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين أخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرو من الفرق والفرق ، وترك الأحمال على برك اخرى سائرة ، ورأى الأمنة ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة ، والأماني تغره بالمواعيد المخلفة ، ونادى تلك الليلة انا جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى الصباح ، فباغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح

بالصدمة الشاقة والحدمة الحاقة ، وعاق ابن ذكاء باذكاء بنت الداهية العاقة ، فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بأمنه سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على وجهه . وربما كر بكرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانه ، وانهزموا نحو الأثقال ، فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية وعاد معظمها الى الديار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار جمالا لاتعد ، وأحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظنت الظنون وارجفت المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر مايحملهم وينهضهم ، ومن المال مايبطرهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند مسلوبين ، ومذكوبين منهوبين ، فسلاهم السلطان عن أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الأخذ بثارهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملأ العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والقتال ، وحلا لهم ماحاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الأفضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وماجرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضيء قد سفر ، وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى ماأصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالسير والسرى اسرار ذوي الأسرة ، بادية على صفحات صفاحه نضرة النصرة ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افاويق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدومه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب للترحيب به صدره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته مائلا ، وهز عطف الابتهاج اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل مافي يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولاذوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي ينشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماأرهجه وأرهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لفضله ، ولائذا بجنابه ، عائذا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أنوار آرائه ، مروضا ماحل بانواء آلائه ، فاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

وأستحضره وأؤمنه مما يحذرة ، وتبقى هـذه السـنة عليه حـران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخـرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مـع أخيه العادل ان يأخـذ تلك البـلاد ويحـويها ، ويملك حـوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واسـتقر ان ينزل عن اقـطاعاته بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجـاوره يجتهـد في استخلاصه ، فأبدى على الرضـا بـذلك وجـه كراهيتـه واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسـليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمـادى الأولى . وكتـب السـلطان بعـود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرنقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مـظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفـوا أن مـرضهم بـه في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة مـامنه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمـراكبه ، وقـد فجعـوا بمصائبه وذوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصـده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخـلا القـدس مـن جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، مـن يجد في تملكه الامكان ، فلمـا عرف السـلطان مـاعزموا عليه مـن